

سلسلة شروحات ومؤلفات معاني الشيخ ميرزا القزوان ٥٦

شرح

كشف الشبهات

للإمام محمد باقر بن محمد الوفا القزوان

الشيخ

الفضيلة الشيخ العلامة

الآية الشريفة بن فزوان بن عبد الله الفوزان

بقر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

محقق: د. أبو شرف علي طه

د. سلمان جابر عثمان المحامنة السونلي

بقر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

مكتبة الأمل الإسلامي

الكويت

الجامعة الإسلامية

الرياض

كشف الشبهات

شَيْخ
كَشَفَ الشُّبُهَاتِ

٢ مؤسسة التراث الذهبي للنشر والتوزيع، ١٤٤٠ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

١ للمجله، سلمان بن جابر بن عثمان

شرح كشف الشبهات، / سلمان بن جابر بن عثمان المجله،

- الرياض، ١٤٤٠ هـ

١٦٠ ص، ١٧/٢٤ سم

ر دمك: ٧-٨-٩١١٠١-٦٠٣-٩٧٨

١ - العقيدة الاسلامية ٢- التوحيد أ. العنوان

١٤٤٠/٢٦٦٧

ديوي ٢٤٠

رقم الإيداع: ١٤٤٠/٢٦٦٧

ردمك: ٧-٨-٩١١٠١-٦٠٣-٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة الطبعة الثانية (١٤٤٧ هـ - ٢٠٢٥ م)



مكتبة الإمام الذهبي للنشر والتوزيع

الفرع الرئيسي: حولي - شارع المثنى - مجمع البدري - ت: ٢٢٦٥٧٨٠٦

فرع المصاحف: ت: ٢٢٦١٥٠٤٦ - فرع الجوهراء، الناصرمول، تلفون: ٩٥٥٥٨٦٠٨

فرع الضحاحيل، البرج الأخضر - شارع الدبوس - تلفون: ٢٥٤٥٦٠٦٩ - ٩٥٥٥٨٦٠٧

فرع الرياض، المملكة العربية السعودية العلامة الذهبي - جوال: ٠٠٩٦٦٥٥٧٦٥١٣٨

الخط الساخن: جوال: ٠٠٩٦٥٩٤٤٠٥٥٥٩



z.zahby74@yahoo.com



Imanzahby

شَيْخ

كُشِفَ الشُّبُهَاتُ

لِلْإِمَامِ / مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ رَحِمَهُ اللَّهُ

الشَّيْخُ

لِفَضِيلَةِ إِبْنِ الْعَلَاءَةِ

الدَّكْتُورِ صَالِحِ بْنِ فُوزَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْفُوزَانِ

عَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلَوْ الدَّيَّةَ وَلِطَمَعَ السَّيِّمِينَ

اعْتَنَى بِهِ وَأَسْرَفَ عَلَى طَبْعِهِ

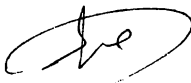
د. سَلْمَانُ جَابِرُ عُثْمَانِ الْمُجَاهِدِ السُّوَلِيمِ

عَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلَوْ الدَّيَّةَ وَلَا أَهْلَ بَيْتِهِ وَلَا أَجْرَهُ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه وبعد:
فقد أذنت لابننا وتلميذنا فضيلة الشيخ الدكتور سلمان بن جابر بن عثمان المجلهم
بطباعة شرح كشف الشبهات للإمام محمد بن عبد الوهاب.
رجاء أن ينفع الله به، ويكتب لي وله الأجر.
وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه.

كتبه: د. صالح بن فوزان الفوزان

عضو هيئة كبار العلماء واللجنة الدائمة


٥٩٢٩ / ١١٥

مُقدِّمة الناشر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا ورسولنا محمد الأمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليماً كثيراً، أما بعد:

فهذا شرح شيخنا العلامة صاحب الفضيلة الشيخ الدكتور/ صالح ابن فوزان بن عبد الله الفوزان على كتاب كشف الشبهات، ألفه العالم الجهابذ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ، وهو كتاب يتناول قضايا هامة في توحيد الألوهية، ويقرر أهمية التفريق بين توحيد الألوهية والربوبية، والرد على الحجج والشبهات التي كانت تنتشر في عصره؛ لتبرير التوسل بالقبور والأضرحة والأموات والأولياء وغيرهم، وما زالت هذه الشبهات الزائفة رائجة عند كثير من الناس، فقد كشف الإمام محمد بن عبد الوهاب عن هذه الشبه، وأوضح بطلانها بطريقة علمية، وأجاب عن شبهات المخالفين في باب التوحيد بجواب حسن مدعماً بالدليل.

ويعتبر الكتاب ذا قيمة كبيرة عند أهل العلم؛ فهو كتاب صغير حجمه، كثير علمه، وقد اجتهد شيخنا العلامة/ صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان -وفقه الله تعالى- في شرحه وتعليقه على هذا الكتاب بأسلوب رصين سهل ميسر، قريب نواله للفهم، جميل العبارة في السبك، نافع للمبتدئ في طلب العلم، كاشفاً للباطل المظلم، وموضحاً للحق لمن أراد سلوك سبيل النجاة.

نسأل الله الثبات على السنة والتوحيد، حتى نلقاه جَلَّ وَعَلَا، وهو راض عنا، وأن يرينا الحق حقاً، ويرزقنا اتباعه، وأن يرينا الباطل باطلاً، ويرزقنا اجتنابه، اللهم آمين!

يقول الشيخ سليمان بن سحمان رَحِمَهُ اللهُ: (صنف الشيخ رَحِمَهُ اللهُ كشف الشبهات، وذكر الأدلة من الكتاب والسنة على بطلان ما أورده أعداء الله ورسوله من الشبهات، فأدحض حججهم، وبين تهافتهم، وكان كتاباً عظيم النفع - على صغر حجمه -، جليل القدر، انقمع به أعداء الله، وانتفع به أولياء الله، فصار علماً يقتدي به الموحدون، وسلسيلاً يرده المهتدون، ومن كوثره يشربون، وبه على أعداء الله يصولون، فله ما أنفعه من كتاب، وما أوضح حججه من خطاب، لكن لمن كان ذا قلب سليم، وعقل راجح مستقيم).

ومن جميل كلام شيخ الاسلام الإمام أبي العباس ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ قوله: (مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ ظُهُورِ الْإِيمَانِ وَالِدِّينِ، وَبَيَانِ حَقِيقَةِ أَنْبَاءِ الْمُرْسَلِينَ ظُهُورُ الْمَعَارِضِينَ لَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْإِفْكِ الْمُبِينِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [١١٣] وَلِنَصْغَى إِلَيْهِ أَفْعَدُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلَيَرْضَوْهُ وَلَيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴿١١٢﴾ [الأنعام: ١١٢-١١٣]، وَذَلِكَ أَنَّ الْحَقَّ إِذَا جُحِدَ وَعُورِضَ بِالشُّبُهَاتِ أَقَامَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ مِمَّا يُحَقُّ بِهِ الْحَقُّ، وَيُبْطَلُ بِهِ الْبَاطِلُ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ بِمَا يُظْهِرُهُ مِنْ أَدِلَّةِ الْحَقِّ وَبَرَاهِينِهِ الْوَاضِحَةِ، وَفَسَادِ مَا عَارَضَهُ مِنَ الْحُجَجِ الدَّاحِضَةِ.

فَالدِّينُ الْحَقُّ كُلَّمَا نَظَرَ فِيهِ النَّاطِرُ، وَنَاطَرَ عَنْهُ الْمُنَاطِرُ، ظَهَرَتْ لَهُ
الْبَرَاهِينُ، وَقَوِيَ بِهِ الْيَقِينُ، وَازْدَادَ بِهِ إِيمَانُ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْرَقَ نُورُهُ فِي صُدُورِ
الْعَالَمِينَ. وَالدِّينُ الْبَاطِلُ إِذَا جَادَلَ عَنْهُ الْمُجَادِلُ، وَرَامَ أَنْ يُقِيمَ عُودَهُ الْمَائِلَ،
أَقَامَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَنْ يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ، فَيَدْمَعُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ، وَتَبَيَّنَ
أَنَّ صَاحِبَهُ الْأَحْمَقَ كَاذِبٌ مَائِقٌ).

وقد أعد هذا الكتاب على نفقة الشيخ أبي عبد الرحمن: مساعد بن علي
الشايحي، والشيخ أبي وائل: محمد بن أحمد الفرحان وزوجته الكريمة، غفر
الله لهم، وتقبل منهم، وجزاهم خير الجزاء في الدنيا والآخرة!

ومما يشار إليه أن إعداد هذا الكتاب، وريعه، والعائد من بيعه، وكل ما
بذل فيه هو وقف لله تعالى، وهو مشروع وقفي من أموال وقفية، تقبل الله من
الجميع، والله أعلم وأعظم وأحكم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى
آله وصحبه أجمعين.

كتبه

د. سَلْمَانُ جَابِرُ عُمَرَانَ الْمُجَاهِدِ السُّوَلِيمِ

بَعَثَ اللَّهُ رُوحَهُ فِيهِ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ بَيْتِهِ وَلَسَانَهُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الشارح

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فهذه رسالة كشف الشبهات للإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ.

وقبل أن ندخل في موضوع الرسالة نتكلم عن المؤلف والتعريف به؛ من أجل أن يكون عند طالب العلم معرفة بهذا المؤلف وطريقته في دعوته؛ لأن هذا من الأمور المهمة في معرفة الأئمة والدعاة إلى الله، ومعرفة نشاطهم ودعوتهم؛ من أجل أن يسير طلاب العلم على نهجهم، ويقتبسوا من سيرتهم، ويقتدوا بهم.

فهو الشيخ الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن مشرف التميمي النجدي، ولد رَحِمَهُ اللهُ في بلدة العيننة^(١)، وهي قرية في شمال الرياض، وكانت محل أسرته.

(١) عام ١١١٥ هـ، المتوفى رَحِمَهُ اللهُ في عام ١٢٠٦ هـ. انظر: الأعلام للزركلي (٦/ ٢٧٥)، ومعجم المؤلفين لعمر كحالة (٣/ ٤٧٢ برقم ١٤٤٦٣).

انظر في مصادر ترجمته رَحِمَهُ اللهُ: عنوان المجد في تاريخ نجد (١: ٣١ وما بعدها)، والإمام محمد بن عبد الوهاب دعوته وسيرته؛ لسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللهُ، و(من أعلام المجددين)؛ للشيخ صالح الفوزان - وفقه الله - (ص ٨٣ - ١٢٧)، و(حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وحقيقة دعوته)؛ للدكتور سليمان بن عبد الرحمن الحقييل، و(الشيخ محمد بن عبد الوهاب المجدد المفترى عليه)؛ لأحمد بن حجر آل بو طامي، و(علماء نجد =

نشأ في بيت علم؛ فأبوه كان القاضي في البلد، وجدّه الشيخ سليمان كان هو المفتي والمرجع للعلماء، وأعمامه كلهم علماء.

= خلال ثمانية قرون؛ للشيخ عبد الله البسام رَحِمَهُ اللهُ (١٢٥: ١٦٨)، و(عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي)؛ لفضيلة الشيخ الدكتور صالح بن عبد الله العبود -حفظه الله-، و(اعتماد دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب على الكتاب والسنة)؛ لصالح الأطرم، و(اعتماد دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب على الكتاب والسنة)؛ لسماحة مفتي عام المملكة العربية السعودية معالي الشيخ/ عبد العزيز آل الشيخ، و(احتساب الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ)؛ لمرفت بنت كامل بن عبد الله أسرة، (منهج شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في التفسير)؛ لمساعد الحسيني، (محمد بن عبد الوهاب مصلح مظلوم ومفتري عليه)؛ لمسعود الندوي، و(الشيخ محمد بن عبد الوهاب حياته ودعوته في الرؤية الاستشرافية)؛ لناصر بن إبراهيم بن عبد الله الطريم، (دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأثرها في العالم الإسلامي)؛ لمحمد ابن عبد الله بن سليمان السلطان، و(دعايات مكثفة ضد الشيخ محمد بن عبد الوهاب)؛ لمحمد منظور النعماني، و(منهج شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في التأليف)؛ لعبد المحسن بن حمد بن عبد المحسن بن عبد الله بن حمد العباد البدر، و(الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب ومنهجه في مباحث العقيدة)؛ لآمنة محمد نصير، و(المرأة في حياة إمام الدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب) مطبوع ضمن بحوث ندوة دعوة الشيخ محمد ابن عبد الوهاب (الجزء الأول)، و(اعتماد دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب على الكتاب والسنة)؛ لمناع القطان، و(الشيخ محمد بن عبد الوهاب في مرآة علماء الشرق والغرب)؛ لمحمود مهدي الإستانبولي، و(الإمام محمد بن عبد الوهاب في مدينة الموصل) مطبوع ضمن بحوث ندوة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (الجزء الأول)؛ لمحمود شيت خطاب، و(داعية التوحيد محمد بن عبد الوهاب)؛ لعبد العزيز شلبي سيد الأهل، و(محمد بن عبد الوهاب داعية التوحيد والتجديد في العصر الحديث)؛ لمحمد بهجت الأثري بن محمود أفندي بن عبد القادر بن أحمد بن محمود، و(حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وآثاره العلمية) مطبوع ضمن بحوث ندوة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (الجزء الأول)؛ لإسماعيل بن محمد بن ماحي السعدي الأنصاري.

فنشأ في بيت علم، ودرس على يد أبيه عبد الوهاب، وعلى أعمامه منذ صغره، فقد حفظ القرآن الكريم قبل أن يبلغ سن العاشرة، فاشتغل في طلب العلم، وحفظ القرآن على أبيه، وقرأ كتب التفسير والحديث، حتى برع في العلم وهو صغير، وأعجب أبوه والعلماء من حوله بذكائه ونبوغه، وكان يناقش في المسائل العلمية، حتى إنهم استفادوا من مناقشته، فاعترفوا له بالفضل، ثم إنه لم يكتف بهذا القدر من العلم، وإن كان فيه الخير، إلا أن العلم لا يشبع منه، فرحل لطلب العلم، وترك أهله ووطنه، وسافر إلى الحج، وبعد الحج ذهب إلى المدينة، والتقى بعلمائها في المسجد النبوي، خصوصاً الشيخ عبد الله بن إبراهيم بن سيف، وكان إماماً في الفقه وأصوله، وهو من أهل نجد، من أهل المجوعة في سدير، وكذلك ابنه إبراهيم بن عبد الله مؤلف كتاب «العذب الفاضل شرح ألفية الفرائض».

والتقى كذلك بالمحدث الشيخ محمد حياة السندي، وأخذ منه إجازة في مروياته من كتب الحديث، ثم رجع إلى بلاده، ولم يكتف بهذا، بل سار إلى بلاد الأحساء في شرق بلاد نجد، وفيها العلماء -من حنابلة، وشافعية، ومالكية، وحنفية-، وأخذ عنهم، خصوصاً عن الحنابلة، ومنهم محمد بن فيروز، وعبد الوهاب بن فيروز، أخذ عنهم الفقه، وأخذ عن عبد الله بن عبد اللطيف الأحسائي.

ولم يكتف بهذا، بل ذهب -أيضاً- إلى العراق -إلى البصرة خاصة-، وكانت آنذاك أهلة بالعلماء في الحديث والفقه، فأخذ عن علمائها، خصوصاً الشيخ محمد المجموعي وغيره.

وكان في كل تنقلاته إذا ظفر بكتاب من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية أو من كتب تلميذه ابن القيم، نسخه بقلمه، ونسخ كثيرًا من الكتب في الأحساء وفي البصرة، فتجمعت لديه مجموعة عظيمة من الكتب.

ثم إنه هم بالسفر إلى بلاد الشام؛ لما فيها من أهل العلم، خصوصًا من الحنابلة وأهل الحديث، ولكنه بعدما سار إليها شقَّ عليه الطريق، وحصل عليه جوع وعطش، وكاد أن يهلك في الطريق، وأنتم تعلمون الإمكانيات في ذلك الوقت وبعد المسافة، فرجع إلى البصرة، وعدل عن السفر إلى الشام، ثم رجع إلى نجد بعدما تسلح بالعلم، وبعدهما حصل على مجموعة كبير من الكتب، إضافة إلى الكتب التي كانت عند أهله وعند أهل بلده، ثم اتجه إلى الدعوة والإصلاح ونشر العلم النَّافع، ولم يرض بأن يسكت، ويترك الناس على ما هم عليه، بل أراد أن ينتشر علمه، وأن يدعو إلى الله، فنظر في مجتمعه، فوجد فيه من الشر والشرك الأمور الكثيرة، فأخذته الغيرة على دين الله والرحمة للمسلمين، ورأى أنه لا يسعه السكوت على هذا الوضع.

وكان علماء نجد يعنون بالفقه، وهم في العقيدة على عقيدة المتكلمين -من أشاعرة وغيرهم-، ليس لهم عناية بعقيدة السلف؛ كما هو في الشام وفي مصر وغيرها من الأقطار، وكانت العقيدة المنتشرة فيها هي عقيدة الأشاعرة، مع ما عند كثير منهم من الإخلال بتوحيد الألوهية.

وأما عقيدة السلف، فقلَّ من يعنى بها، وطغت على الكثير منهم الخرافات والبدع والشرك في العبادة، المتمثل بعبادة القبور، هذا من النَّاحية العلمية.

وأما من النّاحية السياسية، فكانوا متفرقين، ليس لهم دولة تجمعهم، بل كل قرية لها أمير مستقل بها؛ فالعينة فيها حاكم، والدرعية فيها حاكم، والرياض فيها حاكم، وكل قرية صغيرة فيها حاكم، وكانت بينهم حروب وسلب ونهب فيما بينهم وبين القرى والبادية.

فمن النّاحية السياسية كانت البلاد في قلق وتفرق، وفي تناحر وضياح، حتى إن أهل البلد الواحد يقاتل بعضهم بعضاً.

وفي بلاد نجد عبادة القبور والاستغاثة بالأموات، فقد كانت عندهم قبور للصّحابة؛ كقبر زيد بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الذي استشهد مع جماعة من الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ في حرب مسيلمة الكذاب، وكانوا يستنجدون بها، ويستغيثون بها، وعلى قبر زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قبة، وكانوا يأتون إليها من بعيد، وهي مشهورة عندهم^(١).

وعندهم أشجار ونخيل يعتقدون فيها، ويتبركون بها، بل كانت عندهم النّحل الباطلة - مثل الصوفية ووحدة الوجود - في الرياض والخرج؛ هكذا كانت حالتهم الدينية، والعلماء ساكتون عن هذا الوضع، بل إن بعض العلماء يشجعون على هذه الخرافات، ويؤيدونها.

فلما رأى رَحْمَةُ اللهِ حال المسلمين، تحرك للدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وقام يدعو إلى الله، ويدرس التوحيد، وينكر هذه الشراكيات والخرافات، ويقرر منهج السلف الصالح، فتكوّن عنده تلاميذ من الدرعية والعينة ممن أراد الله له الخير.

ثم إنه اتصل بأمر العيينة، وعرض عليه الدعوة، فقبل منه الأمير، ووعدته بالمنصرة في أول الأمر، وهدم قبة زيد بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ حيث طلب من الأمير هدمها؛ لأنه لا يمكن أن يهدمها إلا من له سلطة، أما الفرد، فلا يستطيع ذلك، فاستجاب له الأمير.

وجاء إلى الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ امرأة اعترفت بالزنا، وطلبت منه أن يقيم عليها الحد، فردّها، حتى كررت عليه الطلب مثلما فعلت الغامدية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١)، فأقام عليها الحد، ورجمها، فلما بلغ أمير الأحساء

(١) أخرجه مسلم (٢٢) (١٦٩٥) عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: «جَاءَ مَاعِزُ بْنُ مَالِكٍ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، طَهَّرْنِي، فَقَالَ: «وَيْحَكَ، ازْجِعْ فَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ وَتُبْ إِلَيْهِ»، قَالَ: فَرَجَعَ غَيْرَ بَعِيدٍ، ثُمَّ جَاءَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، طَهَّرْنِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَيْحَكَ، ازْجِعْ فَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ وَتُبْ إِلَيْهِ»، قَالَ: فَرَجَعَ غَيْرَ بَعِيدٍ، ثُمَّ جَاءَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، طَهَّرْنِي، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مِثْلَ ذَلِكَ حَتَّى إِذَا كَانَتِ الرَّابِعَةُ، قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ: «فِيمَ أَطَهَّرُكَ؟» فَقَالَ: مِنَ الزَّنى، فَسَأَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَبِي جُنُونٌ؟» فَأُخْبِرَ أَنَّهُ لَيْسَ بِمَجْنُونٍ، فَقَالَ: «أَشْرِبْ خَمْرًا؟» فَقَامَ رَجُلٌ فَاسْتَنَكَّهَ، فَلَمْ يَجِدْ مِنْهُ رِيحَ خَمْرٍ، قَالَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَزْنَيْتَ؟» فَقَالَ: نَعَمْ، فَأَمَرَ بِهِ فَرَجِمَ، فَكَانَ النَّاسُ فِيهِ فِرْقَتَيْنِ، قَائِلٌ يَقُولُ: لَقَدْ هَلَكَ، لَقَدْ أَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ، وَقَائِلٌ يَقُولُ: مَا تَوْبَةُ أَفْضَلَ مِنْ تَوْبَةِ مَاعِزٍ، أَنَّهُ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَضَعَ يَدَهُ فِي يَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: افْتُلْنِي بِالْحَجَارَةِ، قَالَ: فَلْيُثْبِتُوا بِذَلِكَ يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً، ثُمَّ جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُمْ جُلُوسٌ، فَسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ، فَقَالَ: «اسْتَغْفِرُوا لِمَاعِزِ بْنِ مَالِكٍ»، قَالَ: فَقَالُوا: غَفَرَ اللَّهُ لِمَاعِزِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَقَدْ تَابَ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتِ بَيْنَ أُمَّةٍ لَوَسِعَتْهُمْ»، قَالَ: ثُمَّ جَاءَتْهُ امْرَأَةٌ مِنْ غَامِدٍ مِنَ الْأَزْدِ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، طَهَّرْنِي، فَقَالَ: «وَيْحَكَ ازْجِعِي فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ»، فَقَالَتْ: أَرَأَيْكَ تُرِيدُ أَنْ تُرَدِّدَنِي كَمَا رَدَدْتَ مَاعِزَ بْنَ مَالِكٍ، قَالَ: =

هدم القبة، وأنه رجم المرأة، أرسل إلى أمير العينة، وقال: (إما أن تطرد هذا المطوع^(١))، وإلا قطعت عنك المساعدة التي أرسلها إليك)، فجاء الأمير إلى الشيخ، وعرض عليه الأمر، وقال: (أنا لا أقدر أن أقاوم هؤلاء)، فهدأه الشيخ، ووعد به بالخير، وأن يتوكل على الله، وأن الرزق بيد الله، وأن هذه عقيدة التوحيد من قام بها، فإن الله يعينه، وينصره. لكن الأمير أصرّ على خروج الشيخ من بلده، فخرج الشيخ من العينة في وقت القيلولة، وذهب إلى الدرعية، وكان له فيها تلميذ من خيار التلاميذ، يقال له: ابن سويلم. فذهب الشيخ من العينة إلى الدرعية، ليس معه إلا المروحة اليدوية، يهوي بها على وجهه، وهو يمشي، ويقول: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، يردد هذه الآية، وهو يمشي، فلما وصل إلى تلميذه في الدرعية، أصاب التلميذ خوف وقلق من مجيء الشيخ؛ لأنه يخشى على نفسه وعلى الشيخ من أهل البلد؛ لأنهم متحاذرون من هذا الشيخ، فهدأه الشيخ، وقال: (لا يخطر في بالك شيء أبداً، توكل على الله جَلَّوَعَلَا؛ فهو ينصر من نصره).

وفيما هم كذلك علمت زوجة أمير الدرعية، وكانت امرأة صالحة، فعرضت على زوجها الأمير محمد بن سعود أن ينصر هذا الشيخ الذي جاء،

= «وَمَا ذَاكَ؟» قَالَتْ: إِنَّهَا حُبْلَى مِنَ الزَّنى، فَقَالَ: «أَنْتِ؟» قَالَتْ: نَعَمْ، فَقَالَ لَهَا: «حَتَّى تَضَعِي مَا فِي بَطْنِكَ»، قَالَ: فَكَفَّلَهَا رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ حَتَّى وَضَعَتْ، قَالَ: فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: قَدْ وَضَعَتِ الْغَامِذِيَّةُ، فَقَالَ: «إِذَا لَا تَرْجُمُهَا وَتَدْعُ وَلَدَهَا صَغِيرًا لَيْسَ لَهُ مِنْ يُرْضِعُهُ»، فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: إِلَيَّ رَضَاعُهُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ، قَالَ: فَرَجَمَهَا.

(١) كما يسمونه تصغيراً للشأنه.

وأنه نعمة من الله ساقها إليه، فالبدار باغتنامه، فأدخلت عليه الطمأنينة وحب الدعوة وحب هذا العلم، فقال الأمير: (يأتيني)، فقالت زوجته: (بل اذهب أنت إليه؛ لأنك إذا أرسلت إليه، وقلت: يأتيني. ربما يقول الناس: طلبه من أجل أن يبطش به. لكنك إذا ذهبت إليه، يكون هذا عزاً له ولك)، فذهب إليه الأمير في بيت التلميذ، وسلّم عليه، وسأله عن قدومه، فشرح له الشيخ، وبيّن له أنه ليس عنده إلا دعوة الرسل -صلوات الله وسلامه عليهم-، وهي الدعوة إلى كلمة التوحيد، وهي لا إله إلا الله، وشرح معناها، وبيّن له أنها عقيدة الرسل.

فقال الأمير: (أبشر بالنصر والتأييد)، وقال له الشيخ: (وأبشر بالعز والتمكين)؛ لأن هذه الكلمة «لا إله إلا الله» من قام بها، فإن الله يمكن له. فقال له الأمير: (لكني أشرت عليك شرطاً)، قال: (وما هو؟)، قال: (أن تتركني، وما آخذ من الناس)، قال الشيخ: (لعل الله يغنيك عن هذا، ويفتح لك باب رزق من عنده)، فتفرقا على هذا، وقام الشيخ بالدعوة، وقام الأمير بالمناصرة.

ثم توافد الطلاب على الدرعية، وصار للشيخ مكانة فيها، فكان هو الإمام في الصلاة والمفتي والقاضي، فتكونت إمارة للتوحيد في بلاد الدرعية من ذلك الوقت، وأرسل الشيخ رسائل إلى أهل البلدان والقرى، يدعوهم إلى الله والدخول في عقيدة التوحيد، وترك البدع والخرافات، فمنهم من استجاب، وانضم إلى الدعوة بدون جهاد وبدون قتال، ومنهم من مانعه

وعانده، فقاتل جنود التوحيد بقيادة الأمير محمد بن سعود وريادة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، قاتلوا من عاند وعارض.

وامتدت الدعوة في بلاد نجد، وسلّمت له البلاد ومن حولها، حتى أمير العينة الذي كان له موقف مع الشيخ، دخل في ولاية محمد بن سعود، وكذلك دخلت الرياض بعد قتال شديد، وامتدت إلى الخرج وما وراء الخرج، وإلى الشمال والجنوب، حتى عمت من حدود الشام شمالاً إلى حدود اليمن جنوباً، ومن البحر الأحمر إلى الخليج العربي شرقاً، كلها صارت تحت ولاية الدرعية بادية وحاضرة.

وأفاء الله على الناس في الدرعية الخير والرزق والغنى والثروة، وقامت بها أسواق تجارية، واستنارت بالعلم والقوة ببركة هذه الدعوة السلفية، التي هي دعوة الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

مؤلفاته:

ألف الشيخ الكتب، وأعظمها «كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد»، ومن مؤلفاته هذه الرسالة «كشف الشبهات»، التي نحن بصدد شرحها - إن شاء الله تعالى -، وهي عبارة عن رد الشبهات التي أثيرت حول دعوة التوحيد، التي قام بها الشيخ رَحِمَهُ اللهُ.

والمراد بالكشف: إزالة الغطاء عن الشيء. قال تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾ [ق: ٢٢] ^(١).

(١) انظر: تهذيب اللغة (١٨/١٠)، والصحاح (٤/١٤٢١)، ومقاييس اللغة (٥/١٨١)، ولسان العرب (٩/٣٠٠)، والقاموس المحيط (ص ١٠٩٧).

والشبهات جمع شبهة^(١)، وهي الأمر المشتبه المختلف، الذي لا يُدرى هل هو حق أم باطل؟ ومنه قول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْحَالَ بَيْنَ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيْنَ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ، وَعَرْضِهِ»^(٢).

المشتبهات هنا المراد بها الأمور التي لا يُدرى هل هي من الحلال أو من الحرام؛ لسبب تجاذب الأدلة فيها، ولا يعلمها إلا الخواص من أهل العلم.

فالشبهات هنا المراد بها الأمور المشتبهة، التي فيها تلبيس وتغطية وتمويه على الناس، يظنونها حقاً، وهي ليست بحق، وكشفها هو الإيضاح لبطانها.

والمراد هنا: كشف ما كان عند الناس من شبهات حول عبادة القبور والاستغاثة بها، التي عمت كثيراً من بلاد الإسلام من بعد القرون المفضلة؛ حيث أُدخل في الإسلام ما ليس منه، وذلك عن طريق الشيعة والمتصوفة؛ فهم الذين تسببوا في نشر هذه الشبهات وهذه الشراكيات، التي انتشرت في بلاد الإسلام بحجج واهية، والجهال يظنونها حقاً؛ فيقولون: (إن هؤلاء الموتى عباد صالحون، ولهم مكانة عند الله، ونحن أناس مذنبون)، فهم يتوسلون بهم، ويجعلونهم وسائط بينهم وبين الله في غفران الذنوب، ويتقربون إليهم، وبسبب ذلك تغيرت عقيدة التوحيد عند كثير من الناس من عهد بعيد، بعد المائة الرابعة ومضي القرون المفضلة، حتى قيض الله لهذه الأمة علماء يكشفون

(١) انظر: لسان العرب (١٣ / ٥٠٤)، والمخصص (٣ / ٣٦٦)، وتاج العروس (٣٦ / ٤١١)، والقاموس المحيط (ص ١٢٤٧).

(٢) أخرجه البخاري (٥٢، ٢٠٥١)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هذه الشبهات، ومن أبرزهم شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رَحِمَهُ اللهُ، الذي قام ودحض هذه الشبهات، ووضَّح للناس عقيدة التوحيد، وكتب في ذلك الكتب النافعة، وبيَّن عقيدة السلف الصَّالح، وسجلها في كتبه مدعماً مسائلها بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة، ودحض هذه الشبهات، ثم تلاه تلاميذه كالإمام ابن القيم في كتبه، والإمام ابن كثير، والإمام الذهبي، والإمام المزني، وجاء بعدهم الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللهُ، إلى أن وصل الأمر للشيخ الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ، فتلقى هذه العقيدة بقوة، وقام بالدعوة إليها والجهاد في سبيلها، حتى استنارت بها هذه البلاد - والله الحمد -، وامتدت إلى البلاد المجاورة في مصر والشام والعراق، وحتى في بلاد فارس عند أهل السنة، وامتدت إلى الهند وإلى المغرب، وإلى كثير من البلاد - والله الحمد -، فمن أراد الله له الخير، فإنه تأثر بهذه الدعوة المباركة، وعرف أنها دعوة حق، فاستجاب لها، وأيدها، وقامت الحجة على المعاندين - والله الحمد -، وزالت عن البلاد معالم الشرك والوثنية وعوائد الجاهلية.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الشرح

قال رحمه الله: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، ابتداء الرسالة بـ (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، وهذه هي السُّنَّة: أن تبدأ الكتب والرسائل بـ (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)؛ كما ابتداء الله تعالى بها في كتابه، فأول ما ترون في المصحف الشريف: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ① الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿الفاتحة: ١-٢﴾، وكذلك قبل كل سورة (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) ②، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا كتب، يبدأ كتبه بـ (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) ③، وإذا تحدث إلى أصحابه، يبدأ مجلسه بـ (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ).

(١) انظر هذه المسألة في: تفسير الطبري (١/ ١١٢)، وتفسير السمعاني (١/ ٣٢)، وتفسير البغوي (١/ ٥١)، وزاد المسير (١/ ١٤)، وابن كثير (١/ ١١٦-١١٧)، والتحرير والتنوير (١/ ١٣٨)، والقرطبي (١/ ٩٢-٩٣)، وأحكام القرآن للجصاص (١/ ١١)، ومجموع الفتاوى (٢٢/ ٢٧٦، وما بعدها، ٤٣٨، ٤٤٠).

(٢) كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقتصر عليها في مراسلاته؛ كما في كتابه لهرقل عظيم الروم، أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما، وفيه: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلٍ عَظِيمِ الرُّومِ: سَلَامٌ عَلَى مَنْ أَتَبَعَ اهْتَدَى، أَمَّا بَعْدُ». وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكتب أول ما يكتب «بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ»، فلما نزلت ﴿إِنَّهُ مِنْ شَيْئَيْنِ وَلِإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿النمل: ٣٠﴾ كتب «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ». أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣/ ٨١)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٢٦١)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ٢٦٤) عن الشعبي، وأخرجه أبو داود في مراسيله (ص ٩٠) عن أبي مالك. وانظر: الدر المنثور (٦/ ٣٥٤).

وانظر صحيح الإمام البخاري (٤/ ٤٠٢) كتاب الجهاد باب دعاء النبي إلى الإسلام والنبوة وأن لا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ﴾ إلى آخر الآية. وفي الفتح (٦/ ١٠٩)، وانظر تفاصيل ذلك في زاد المعاد =

والحكمة في البدء بـ(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) التبرك بها؛ لأنها كلمة مباركة، فإذا ذكرت في أول الكتاب أو في أول الرسالة، تكون بركة عليه^(١).

أما الكتب أو الرسائل التي لا تبدأ بـ(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، فإنها تكون ناقصة، لا خير فيها، ومن ناحية أخرى (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) فيها الاستعانة بالله جَلَّ وَعَلَا، فقوله: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) أي: أستعين، وأتبرك بـ(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، فالجار والمجرور متعلق بمحذوف تقديره: أستعين، وأتبرك بـ(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)^(٢).

والله) عَلم على الذات المقدسة.

و(الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) اسمان كريمان من أسمائه الحسنی، يتضمنان الرحمة^(٣).



=في هدي خير العباد لابن القيم (٣/٦٨٨-٦٩٦)، ذكر هديه في مكاتباته إلى الملوك وغيرهم.

(١) عملاً بحديث: «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَهُوَ أَقْطَعُ»، ورد هذا الحديث بألفاظ متقاربة، منها المرفوع إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومنها المرسل، وقد أخرجه أبو داود (٤٨٤٠)، والنسائي في الكبرى (١٢٧/٦)، وابن ماجه (١٨٩٤)، وأحمد في المسند (٣٥٩/٢)، وابن حبان في صحيحه (١٧٣/١)، وابن أبي شيبه في مصنفه (٣٣٩/٥)، والدارقطني (٢٢٩/١)، والبيهقي في الكبرى (٢٠٨/٣)، وفي شعب الإيمان (٩٠/٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: مدارج السالكين (١-٨٩).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١/١٢٦)، وتفسير السمعاني (١/٣٣)، والمحزر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/٦٣-٦٤)، وزاد المسير (١/١٦)، وتفسير ابن كثير (١/١٢٤).

اعْلَمْ - رَحِمَكَ اللَّهُ - أَنَّ التَّوْحِيدَ هُوَ إِفْرَادُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالْعِبَادَةِ، وَهُوَ دِينُ الرُّسُلِ الَّذِي أَرْسَلَهُمُ اللَّهُ بِهِ إِلَى عِبَادِهِ، فَأَوَّلُهُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ إِلَى قَوْمِهِ لَمَّا غَلَوْا فِي الصَّالِحِينَ: وَدَّ، وَسَوَاعٍ، وَيَغُوثٌ، وَيَعُوقٌ، وَنَسْرٌ، وَآخِرُ الرُّسُلِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ الَّذِي كَسَّرَ صُورَ هَؤُلَاءِ الصَّالِحِينَ.

• الشَّرْحُ •

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (اعْلَمْ - رَحِمَكَ اللَّهُ -)، (اعلم): هذه الكلمة يبدأ بها في التنبيه إلى الأمور المهمة، فإذا أردت أن تنبه شخصاً على شيء مهم من مسائل العلم، تقول له: (اعلم)؛ من أجل أن ينتبه.

و(اعلم) فعل أمر من العلم؛ يعني: تعلم ما يأتي، واهتم به، وألقِ بالك لما يلقي عليك، ولما يكتب لك. فهذه كلمة يُؤتى بها لأهمية ما يأتي بعدها، قال تعالى: ﴿لِنَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، وقال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩]، وقال تعالى: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨]، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢]، فهذه كلمة عظيمة يؤتى بها للاهتمام.

ثم قال: (رَحِمَكَ اللَّهُ)، هذا دعاء من الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ لكل من قرأ هذه الرسالة، وهذا من باب التَّلَطُّفِ لطالب العلم، وتحسين الكلام له؛ من أجل أن يُقبل على طلب العلم.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (أَنَّ التَّوْحِيدَ هُوَ إِفْرَادُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالْعِبَادَةِ)؛ أي: اعلم هذه المسألة العظيمة، واجعلها في ذاكرتك، واجعلها في اهتمامك دائماً وأبداً، وهي (أَنَّ التَّوْحِيدَ هُوَ إِفْرَادُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالْعِبَادَةِ)، وليس هو إفراد الله بالربوبية؛ فإن هذا أقرب به المشركون، ولم يكونوا موحدين؛ لأنهم لم يفرّدوا الله بالعبادة، فإقرارهم بتوحيد الربوبية ليس هو التوحيد المطلوب، وإنما توحيد الربوبية دليل على توحيد الألوهية، ولازم له، فمن أقر بتوحيد الربوبية، لزمه أن يقر بتوحيد الألوهية، والله تعالى يذكر في القرآن في كثير من الآيات توحيد الربوبية دليلاً على توحيد الألوهية؛ كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿ [البقرة: ٢١-٢٢]، هذا هو توحيد الربوبية، وهو دليل توحيد الألوهية، فأقام سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الحجة عليهم فيما أنكروه من توحيد الألوهية بما اعترفوا به من توحيد الربوبية؛ ليلزمهم بذلك، حيث قال لهم: (كيف تعترفون أنه هو الخالق الرازق المحيي المميت، وأنه لا شريك له في ذلك، ثم تشركون في عبادته؟!).

أما الذين يقولون: (إن التوحيد هو الإقرار بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت... إلى آخره)، فهم غالطون غلطاً فاحشاً، ولم يأتوا بالتوحيد المطلوب، الذي دعت إليه الرسل.

وعلى هذا المنهج الباطل أغلب عقائد المتكلمين، التي تدرس الآن في كثير من المدارس الإسلامية.

وقصد الشيخ رَحِمَهُ اللهُ بهذا التعريف هو الرد على هؤلاء الذين ركزوا على توحيد الربوبية، وتركوا توحيد الألوهية، فهذه أول شبهة، وهي: أنهم جعلوا توحيد الربوبية هو التوحيد المطلوب، وأن من أفرد الله به، فهو الموحد، وألفوا كتبهم فيه، وبنوا منهجهم عليه، وصرخوا همهم إلى تحقيقه.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَهُوَ دِينَ الرُّسُلِ الَّذِي أَرْسَلَهُمُ اللَّهُ بِهِ إِلَى عِبَادِهِ)، فالرسل كلهم ما طلبوا من الناس أن يقرروا بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت؛ لأنهم معترفون بهذا، وإنما طالبوا الأمم بإفراء الله بالعبادة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ما قال: (أن يقرروا بأن الله هو الرب)؛ لأنهم مقرون بهذا، بل قال: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾؛ أي: اتركوا الشرك بالله عَزَّجَلَّ في الألوهية.

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، ما قال: (إنه لا رب سواي، ولا خالق إلا أنا)، بل قال سبحانه: ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾؛ أي: لا معبود بحق سواي.

هذا الذي بعث به الله الرسل، ما بعث الرسل لتقرير توحيد الربوبية؛ لأن هذا موجود، لكنه لا يكفي، بل بعثهم لتوحيد الألوهية الذي هو إفراء الله تعالى بالعبادة، وهو دين الرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (فَأُولَهُمُ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ)؛ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣]، فدلَّت الآية الكريمة على أن أول الرسل هو نوح صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ هو أول

رسول بعد حدوث الشرك في الأرض، وتتابع بعد الرسل على هذا المنهج الرباني، وآخرهم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو خاتمهم، ولأنبي بعده إلى أن تقوم الساعة، قال الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي»^(١)، فهو آخر الرسل -عليهم الصلاة والسلام- وآخر الأنبياء؛ لأن كل رسول نبي، فلا يبعث بعده لا رسول ولا نبي، فمن اعتقد أنه يبعث بعده رسول أو نبي، فهو كافر، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَأَنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلَاثُونَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيُّهُمْ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي»، فمن لم يعتقد ختم الرسالة بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأجاز أن يبعث بعده نبي، فهو كافر بالله عَزَّ وَجَلَّ، مكذب لله ولرسوله ولإجماع المسلمين.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (أَرْسَلَهُ اللَّهُ إِلَى قَوْمِهِ لَمَّا غَلَوْا فِي الصَّالِحِينَ: وَدٌّ، وَسُوعٌ، وَيَغُوثٌ، وَيَعْقُوقٌ، وَنَسْرٌ)، الغلو هو مجاوزة الحد^(٢).

والغلو في الصالحين هو: اعتقاد أنهم ينفعون، أو يضرّون من دون الله. و«ودّ وسواع...» إلى آخره هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ماتوا في عام واحد، فحزن قومهم عليهم حزناً شديداً، فجاء الشيطان إليهم، وقال لهم: (صوّروا صورهم، وانصبوها على مجالسهم؛ من أجل أن تتذكروا

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٥٢)، وابن ماجه (٣٩٥٢)، وأحمد (٢٧٨/٥). وأصله في مسلم (٢٨٨٩). من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: العين (٤/٤٣٥)، وتهذيب اللغة (٨/١٥٣)، ولسان العرب (٨/١٥)، وتفسير الطبري (١٩/٣).

أحوالهم، فتنشطوا على العبادة^(١)؛ جاءهم عن طريق النصيحة، وهو يريد لهم الهلاك، فخدعهم بهذه الحيلة، واعتبروا هذه وسيلة صحيحة؛ لأنها تنشط على العبادة، فهذا فيه التحذير من فتنة الصور وفتنة الغلو في الصالحين، وهؤلاء نظروا لمصلحة جزئية، ولم ينتبهوا لما يترتب عليها من المفسد، فالإنسان لا ينظر إلى المصلحة الجزئية، وينسى المضار العظيمة، التي تترتب عليها في المستقبل.

ثم أهلك قوم نوح بالطوفان، فاندurst هذه الأصنام، إلى أن جاء عهد الطاغية، وهو ملك من ملوك العرب، يقال له: عمرو بن لحي الخزاعي، وكان له سلطان على الحجاز، وكان في أول أمره رجلاً ناسكاً على دين قومه، ولكن ذهب إلى الشام للعلاج، فوجد أن أهل الشام يعبدون الأصنام، فدخل في فكره هذا الشيء، فجاء إلى أهل الحجاز والجزيرة، فدعاهم إلى الشرك، وجاء الشيطان فأرشده إلى مواطن الأصنام، التي كانت تعبد عند قوم نوح، والتي سقى^(٢) عليها الرمل بعد الطوفان، فحفرها، ونقّب عنها، فاستخرجها، ووزعها على أحياء العرب، فانتشر الشرك من ذلك الوقت^(٣).

(١) أخرجه البخاري (٤٩٢٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم، أن انصبوا إلى مجالستهم التي كانوا يجلسون أنصاباً، وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبّد، حتّى إذا هلك أولئك، ونسي العلم عبّدت».

(٢) سفت الريح التراب تسفيه: ذرّته، أو حملته. انظر: القاموس المحيط (ص ١٦٧١) مادة (سفت).

(٣) انظر: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك (٢/ ٢٣٢).

وكانت هذه الأصنام الموروثة عن قوم نوح هي أكبر الأصنام، وإلا فلهم أصنام كثيرة، حتى إنه كان حول الكعبة المشرفة ثلاثمائة وستون صنماً^(١)؛ اللات^(٢)، والعزى^(٣)، ومناة الثالثة الأخرى^(٤) هي أكبر أصنامهم.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَأَخِرُ الرُّسُلِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ الَّذِي كَسَرَ صُورَ هَؤُلَاءِ الصَّالِحِينَ)، كانت حال العرب الدينية قبل بعث النبي محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي الوثنية، ثم بعث الله نبيه محمداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام الحنيفية السمحة، ودعاهم إلى التوحيد بمكة، وبقي ثلاث عشرة سنة يدعوهم إلى التوحيد بمكة، وينكر عليهم عبادة الأصنام، فاستجاب له من أراد الله له الهداية من الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، الذين أسلموا معه في مكة.

ثم إن الله أذن لهم بالهجرة إلى الحبشة، ثم إلى المدينة، وهاجر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة، واجتمع حوله المهاجرون والأنصار، وكون جيوش التوحيد، وصاروا يغزون المشركين.

إلى أن جاء في السنة الثامنة من الهجرة إلى مكة فاتحاً، وصارت مكة تحت سلطة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعند ذلك كسر هذه الأصنام، التي حول الكعبة، وغسل الصور التي في جوف الكعبة، وأرسل إلى الأصنام التي حول

(١) أخرجه البخاري (٢٤٧٨)، ومسلم (١٧٨١) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: «دَخَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَكَّةَ، وَحَوْلَ الْكَعْبَةِ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَسِتُّونَ نُصْبًا، فَجَعَلَ يَطْعُنُهَا بِعُودٍ فِي يَدِهِ، وَجَعَلَ يَقُولُ: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١]. الآية».

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٤٥٥/٧)، وتفسير ابن جرير (٤٧/٢٢ - ٤٨).

(٣) انظر: تفسير ابن جرير (٤٩/٢٢).

(٤) انظر: فتح الباري (٦١٣/٨).

مكة - اللات والعزى ومناة - من الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من كسرها^(١)، ومنها صور هؤلاء الصَّالحين من قوم نوح. وانتشر التوحيد، واندحر الشرك - والله الحمد -، وهذا معنى قول الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: (كَسَرَ صُورَ هَؤُلَاءِ الصَّالِحِينَ)، وذلك يوم فتح مكة، وطهر الله به حرمة الشريف من هذه الأصنام.

وامتد التوحيد من بعثته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعهد الخلفاء الراشدين وعهد القرون المفضلة كلها خاليًا من الشرك، فلما انتهت القرون المفضلة، انتشر التصوف والتشيع، وعند ذلك حدث الشرك في الأمة؛ بعبادة القبور والأضرحة وتقديس الأولياء والصالحين إلى وقتنا هذا، وهذا الشرك موجود في الأمة، ولكن يقيض الله جَلَّ وَعَلَا من يقيم الحجة على العباد من الدعاة المخلصين، ويهدي الله على أيديهم من أراد الله هدايته.

(١) كما في الحديث الذي أخرجه النسائي في الكبرى (٦/٤٧٤)، وأبو يعلى (٢/١٩٦)، «لَمَّا فَتَحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَكَّةَ بَعَثَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى نَخْلَةٍ، وَكَانَتْ بِهَا الْعُزَّى، فَأَتَاهَا خَالِدٌ، وَكَانَتْ عَلَى ثَلَاثِ سَمَرَاتٍ، فَقَطَعَ السَّمَرَاتِ، وَهَدَمَ الْبَيْتَ الَّذِي كَانَ عَلَيْهَا، ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: ازْجِعْ فَإِنَّكَ لَمْ تَصْنَعْ شَيْئًا، فَرَجَعَ خَالِدٌ، فَلَمَّا بَصُرَتْ بِهِ السَّدَنَةُ وَهُمْ حَجَبْتُهَا، أَمْعَوْا فِي الْجَبَلِ، وَهُمْ يَقُولُونَ: يَا عَزَّى يَا عَزَّى، فَأَتَاهَا خَالِدٌ، فَإِذَا امْرَأَةٌ عُرْيَانَةٌ، نَاشِرَةٌ شَعْرَهَا، تَحْتَفِنُ التُّرَابَ عَلَى رَأْسِهَا، فَعَمَّمَهَا بِالسَّيْفِ حَتَّى قَتَلَهَا، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: تِلْكَ الْعُزَّى».

أرسل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المغيرة بن شعبة وأبا سفيان بن حرب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إلى (اللات) في الطائف، فهدهما بأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. انظر: سيرة ابن هشام (٤/١٣٨).

وأرسل علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى (مناة)، فهدهما ومحاهما. انظر: تفسير القرطبي (١٧/١٠٢).

وهكذا ينبغي، ويجب على طلبة العلم والدعاة أن يهتموا بهذا الأمر، وأن يجعلوا الدعوة للتوحيد، وإنكار الشرك، ودحض الشبهات من أولويات دعوتهم؛ فهذا هو الواجب، وهذه دعوة الرسل -عليهم الصلاة والسلام-؛ لأن كل أمر يهون دون الشرك، فما دام الشرك موجودًا، فكيف تنكر الأمور الأخرى؟!

لابد أن نبدأ بإنكار الشرك أولاً، ونخلص المسلمين من هذه العقائد الجاهلية، ونبين لهم بالحجة والبرهان وبالجهد في سبيل الله -إذا أمكن ذلك-، حتى تعود الحنيفية إلى المسلمين، كل بحسب استطاعته ومقدرته في كل مكان وزمان.

يجب على الدعاة ألا يغفلوا عن هذا الأمر، ويهتموا بأمور أخرى، ويبدلوا جهودهم فيها، ولا يغطوا أعينهم عن واقع الناس الواقعين في الشرك، وعبادة الأضرحة، واستيلاء الخرافيين وطواغيت الصوفية على عقول الناس.

هذا أمر لا يجوز السكوت عليه، وكل دعوة لا تتجه للنهي عنه، فهي دعوة ناقصة، أو دعوة غير صالحة، أو دعوة غير مثمرة.

كما أنه يجب أن يعلم أن الإقرار بتوحيد الربوبية لا يكفي، ولا ينفع، إلا إذا كان معه الإقرار بتوحيد الألوهية، وتحقيقه قولاً وعملاً واعتقاداً، وأنّ المشركين الذين بعث إليهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كانوا مقرين بتوحيد الربوبية، ولم ينفعهم إقرارهم به، لما كانوا جاحدين لتوحيد الألوهية.

أَرْسَلَهُ اللَّهُ إِلَى أَنَاسٍ يَتَعَبَّدُونَ، وَيُحْجُونَ، وَيَتَصَدَّقُونَ، وَيَذْكُرُونَ اللَّهَ، وَلَكِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ بَعْضَ الْمَخْلُوقِينَ وَسَائِطَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى، يَقُولُونَ: نُرِيدُ مِنْهُمْ التَّقَرُّبَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَنُرِيدُ شَفَاعَتَهُمْ عِنْدَهُ، مِثْلَ الْمَلَائِكَةِ، وَعِيسَى، وَمَرْيَمَ، وَأَنَاسٍ غَيْرِهِمْ مِنَ الصَّالِحِينَ، فَبَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُجَدِّدُ لَهُمْ دِينَهُمْ - دِينَ أَبِيهِمْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَيُنْجِبُهُمْ أَنْ هَذَا التَّقَرُّبُ وَالْاِعْتِقَادُ مُحْضٌ حَقُّ اللَّهِ تَعَالَى، لَا يَصْلُحُ مِنْهُ شَيْءٌ لغيرِهِ، لَا لِلْمَلِكِ مُقَرَّبٍ، وَلَا نَبِيِّ مُرْسَلٍ، فَضَلًّا عَنْ غَيْرِهِمَا. وَإِلَّا فَهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْخَالِقُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّهُ لَا يَزُرُقُ إِلَّا هُوَ، وَلَا يُحْيِي وَلَا يُمِيتُ إِلَّا هُوَ، وَلَا يُدَبِّرُ الْأَمْرَ إِلَّا هُوَ، وَأَنَّ جَمِيعَ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ، وَمَنْ فِيهِنَّ، وَالْأَرْضِينَ السَّبْعِ وَمَنْ فِيهِنَّ، كُلُّهُمْ عِبِيدُهُ، وَتَحْتَ تَصَرُّفِهِ وَقَهْرِهِ.

• الشَّرْحُ •

أي: أن مشركي العرب الذين بُعث إليهم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعبدون الله، ولم تنفعهم هذه العبادة، لما كانت مخلوطة بالشرك الأكبر، ولا فرق بين أن يكون المشرك به مع الله سبحانه صنمًا، أو عبدًا صالحًا، أو نبيًا مرسلًا، أو ملكًا مقربًا، ولا أن يكون قصد المشرك أن معبوده ليس شريكًا لله في ملكه، بل هو مجرد وسيلة إلى الله ومقرب إليه.

فدل ذلك على أمرين:

الأمر الأول: أن الإقرار بتوحيد الربوبية وحده لا يكفي للدخول في الإسلام، ولا يعصم الدم والمال، ولا ينجي من عذاب الله.

الأمر الثاني: أن عبادة الله إذا دخلها شيء من الشرك، أفسدها؛ فلاتصح العبادة إلا مع الإخلاص.



فَإِذَا أَرَدْتَ الدَّلِيلَ عَلَى أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَشْهَدُونَ بِهَذَا، فَاقْرَأْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا نُنْقِوْنَ ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَكَاتِ السَّجْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِوْنَ ﴿[المؤمنون: ٨٤-٨٧]، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

فَإِذَا تَحَقَّقْتَ أَنَّهُمْ مُقَرَّنُونَ بِهَذَا، وَأَنَّهُ لَمْ يُدْخِلْهُمْ فِي التَّوْحِيدِ الَّذِي دَعَاهُمْ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَرَفْتَ أَنَّ التَّوْحِيدَ الَّذِي جَعَلُوهُ هُوَ تَوْحِيدُ الْعِبَادَةِ، الَّذِي يُسَمِّيهِ الْمُشْرِكُونَ فِي زَمَانِنَا (الاعتقادي)، وَكَانُوا يَدْعُونَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَيْلًا وَنَهَارًا.

الشرح

يقول الشيخ رحمه الله: فإذا طلبت الدليل على أن المشركين مقررون بهذا -يعني: بتوحيد الربوبية-، وأنهم يشركون في توحيد الألوهية، إذا أردت الدليل على هذه المسألة العظيمة، التي يُعرف بها الحق من الباطل، فاقْرَأْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا نُنْقِوْنَ﴾، فالمشركون يعترفون بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الخالق الرازق المتصرف في عبادته، الذي بيده الأمر، لا ينكر أحد منهم هذا، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ

يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴿١﴾، هذا الرزق الذي تأكلون منه، وتشربون، وتلبسون، وتركبون، من الذي جاء به؟ هل جاءت به الأصنام؟! الأصنام جمادات وحجارة، أم الأشجار، أو الأموات، أو القبور والأضرحة؟! كلها لا تأتي بأرزاقكم، فهم يعترفون بأن أصنامهم لا تخلق، ولا ترزق، قال تعالى: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾، السمع الحاسة العظيمة التي تسمع بها الأصوات، والبصر الذي تبصر به المرئيات، هذه العين التي يجعل الله فيها هذا البصر، وهذا النور من الذي خلقه فيك؟ هل خلقه أحد غير الله؟! فهل رأيتم أحداً من الخلق أوجد في أحد السمع، إذا سلب منه؟! وهل يستطيع أحد أن يرد للأعمى البصر الذي ذهب عنه؟! لو اجتمع أهل الأرض كلهم على أن يجعلوا في عينه بصراً، ما استطاعوا؛ لا الأصنام، ولا الأطباء، ولا الحذاق من العلماء.

فالمشركون معترفون بأن أصنامهم لا تعمل أي شيء من ذلك، قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَنَّمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ﴾ [الأنعام: ٤٦]، لا يوجد أحد يجيب عن هذا السؤال، ولا أحد يستطيع غير الله أن يأتي بالسمع والبصر.

﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾، هذا من العجائب؛ يخرج الحي من الميت، يُخرج الزرع من الحبة، ويخرج المؤمن من الكافر، ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾؛ يخرج الكافر من المؤمن، ويخرج البيضة من الطائر. الذي يقدر على هذا هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾: هذا عموم؛ يعني: كل الأمور من الموت والحياة، والمرض والصحة، والكفر

والإيمان، والغنى والفقر، والليل والنهار، والعز والذل والملك، يعطي ذلك من يشاء، ويأخذه من يشاء، كل ما يجري في هذا الكون من تقلبات وتغيرات من الذي يوجد هذه التغيرات وهذه التقلبات؟ فسيقولون: الله. فقال الله لنبينه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿فَقُلْ أَفَلَا نُنْقِوْنَ﴾، ما دام أنكم معترفون أن هذه الأمور بيد الله، وأن أصنامكم لا تفعل شيئاً منها، أفلا تتقون الله عَزَّجَلَّ، وتوحدونه، وتفردونه بالعبادة؛ لأنكم إن لم تتقوا الله، فإن الله يعذبكم؛ لأنه أقام عليكم الحجة، وقطع منكم المذصرة، فلم يبق إلا العذاب، ما دمتم عرفتم الحق، ولم تعملوا به.

﴿فَذَلِّكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢]، تبين لكم أن العبادة حق لله تعالى، فلا معبود بحق إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإن لم تعبدوه، فإن هذا ضلال، فماذا بعد الحق -الذي هو التوحيد وإفراد الله بالعبادة- إلا الضلال الذي هو الشرك؟

فليحذر المسلم من هذا، وليقبل الحق، إذا تبين له، خصوصاً في أمر التوحيد والعقيدة، يقبل الحق، إذا تبين له، ويخاف أن يصرف عنه؛ فلا يقبله بعد ذلك.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِوْنَ (٨٧) قُلْ مَنْ مِثْلُ مَلَكُوتِ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿ [المؤمنون: ٨٤-٨٩]، هذه آيات من سورة المؤمنون؛ مثل الآيات

التي في سورة يونس، التي ساقها المصنّف، ومثل غيرها من الآيات التي تقرر أن المشركين يعترفون لله بربوبيته، ولكنهم يعارضون في توحيد الألوهية.

قال تعالى: ﴿قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴿، مادامت الأرض ومن فيها لله، كيف تعبدون الأصنام التي لا تملك شيئاً، وتعبدون القبور الميتة التي لا حياة في أصحابها؟!﴾

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، أفلا تذكرون أن الذي يملك الأرض ومن فيها هو المستحق للعبادة دون هذه الأصنام التي تعبدونها؟!﴾

وهذا إقامة للحجة عليهم بما يعترفون به على ما جحدوه، فهم يعترفون بتوحيد الربوبية، ويحجدون توحيد الألوهية.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَإِذَا تَحَقَّقْتَ أَنَّهُمْ مُقِرُّونَ بِهَذَا، وَأَنَّهُ لَمْ يُدْخِلْهُمْ فِي التَّوْحِيدِ الَّذِي دَعَاهُمْ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَرَفْتَ أَنَّ التَّوْحِيدَ الَّذِي جَحَدُوهُ هُوَ تَوْحِيدُ الْعِبَادَةِ، الَّذِي يُسَمِّيهِ الْمُشْرِكُونَ فِي زَمَانِنَا الْاِعْتِقَادَ؛ أَي: إذا عرفت أن المشركين مقرون بتوحيد الربوبية، وأن الذي جحدوه هو توحيد الألوهية، وهم يقولون: (إن الله هو الخالق الرازق، المحيي المميت)، لكن إذا قيل لهم: (قولوا لا إله إلا الله)، قالوا: ﴿أَجْعَلِ الْأَلْهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]؛ أي: إذا قيل لهم: (اعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئاً)، قالوا كما قال قوم نوح من قبل: ﴿لَا نَدْرَأُ الْهَتَكَ وَلَا نَذَرُ وَدَا وَلَا سَوَاعَا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣].

كذلك هؤلاء المشركون كان الجدال الذي بينهم وبين الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو في عبادة الله وحده لا شريك له، فالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول لهم: «قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَفْلِحُوا»^(١)، وهم يقولون: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [ص: ٥]، ويقولون: (هذا دين آبائنا وأجدادنا)، حتى إن أبا طالب عند الوفاة، لما طلب منه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يقول: (لا إله إلا الله)، أبى أن يقولها، وقال: «هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»^(٢)، وملة عبد المطلب عبادة الأصنام.

هذا هو محل النزاع بين الرسل وبين الأمم؛ فالرسل يقولون للأمم: (اعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئاً)، ولكن المشركين أبوا إلا البقاء على عبادة الأصنام.

فالخصومة بين الرسل وبين الأمم هي في توحيد الألوهية، أما توحيد الربوبية، فهو محل إجماع عند الجميع، لم يخالفوا فيه، وإنما خالفوا في توحيد

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧/١٤٨، ٣٨/٢٢٤)، والطبراني في الكبير (٨/٣١٤)، والبيهقي في دلائل النبوة (٢/١٨٦)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٥/٢٦١٩)، من حديث شيخ من كنانة.

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (١٣٦٠، ٣٨٨٤، ٤٦٧٥، ٤٧٧٢)، ومسلم (٢٤): عَنْ ابْنِ الْمُسَيَّبِ، عَنْ أَبِيهِ، «أَنَّ أَبَا طَالِبٍ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ، دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعِنْدَهُ أَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ: «أَيُّ عَمٍّ، قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةٌ أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ» فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ، تَرْغُبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَلَمْ يَزَالَا يُكَلِّمَانِهِ، حَتَّى قَالَ آخِرُ شَيْءٍ كَلَّمَهُمْ بِهِ: عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا سْتَغْفِرَنَّ لَكَ، مَا لَمْ أَنَّهُ عَنْهُ» فَتَرَكْتُ: ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]. وَتَرَكْتُ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦].

الألوهية؛ فهو محل النزاع، وهو الذي شرع من أجله الجهاد في سبيل الله، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^(١).

فلو كان الرسول صلى الله عليه وسلم يطلب منهم الإقرار بتوحيد الربوبية، ما صار بينهم خصومة ولا نزاع؛ لأنهم معترفون به.

قال رحمه الله: (وَكَانُوا يَدْعُونَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَيْلًا وَنَهَارًا)، وهذا أمر ثان من شأن المشركين؛ كما أنهم يعترفون بتوحيد الربوبية، فهم -أيضًا- يعبدون الله؛ فيدعون، ويحجون إلى البيت، ويعتَمرون، ويتصدقون، ويعبدون الله بأنواع من العبادة، لكنهم يخلطونها بالشرك، بحيث يعبدون الله، ويعبدون غيره، وهذا لا ينفعهم شيئاً؛ لأن الشرك يبطل عبادتهم، فالعبادة لا تنفع إلا مع الإخلاص، ولهذا يقول جل وعلا: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، ما اقتصر على قوله: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾، بل لابد أن يتجنب الشرك، فإذا كان لم يتجنب الشرك، ولو كان يعمل أعمالاً كثيرة، فإنها تبطل، ولا تنفع.

فالمشركون كان عندهم عبادات لله عز وجل، وهي من بقايا دين إبراهيم الخليل عليه السلام، فكانوا في البداية على دين إبراهيم عليه السلام، ولكن لما جاء عمرو بن لحي الخزاعي، غيّر دينهم، وأدخل فيه الشرك، لكن بقيت بقايا من دين إبراهيم عليه السلام عندهم، وهم مشركون، فهم يدعون الله، خصوصاً إذا

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٩، ١٤٥٧، ٦٩٢٤، ٧٢٨٤)، ومسلم (٢٠) من حديث أبي

وقعوا في الشدة، فإنهم يخلصون الدعاء لله عَزَّجَلَّ، ويتركون دعاء الأصنام؛ لأنها لا تنفع في هذا الموقف، ولا تنجدهم في وقت الشدة، فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣٢]، فالعبادات إذا خالطها شرك، تكون باطلة.

فالذين يدعون الإسلام الآن، ويصلّون، ويصومون، ويحجّون، ولكنهم يدعون الحسين والبدوي وعبد القادر الجيلاني، هؤلاء مثل المشركين الأولين؛ فالمشركون يتعبدون لله عَزَّجَلَّ، ولكنهم يدعون اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، ولا يقولون: (إن هذه أرباب)، بل يقولون: (هذه تقربنا إلى الله زلفى، نريد منها الزلفى عند الله، والتقرب إلى الله؛ فهي وسائط وشفعاء بيننا وبين الله)، وهؤلاء يقولون: (الحسن والحسين وعبد القادر والبدوي إنما هم شفعاء لنا عند الله)، ولا يقولون: (إنهم يخلقون، ويرزقون، ويتصرفون في شيء من الأمور، وإنما هذا الله عَزَّجَلَّ، إنما هؤلاء وسائط وشفعاء)، ويقول بعض الناس: (هؤلاء مسلمون)، فنقول: ولماذا لا يكون كفار قريش مسلمين أيضًا؟! وهذا القائل ليس عنده فهم للتوحيد ولا بصيرة؛ لأنه ما فهم التوحيد.

والواجب على الإنسان أن يعرف هذا الأمر؛ لأنه مهم جدًّا، وهذه هي الثقافة الصحيحة، ليست الثقافة أن تعرف أحوال العالم والحكومات والسياسات، هذه ثقافة لا تنفع ولا تضر؛ الثقافة التي تنفع هي معرفة التوحيد

الصحيح، ومعرفة ما يضاده من الشرك، أو ينقصه من البدع والمحدثات، هذه هي الثقافة الصحيحة، وهذا هو المطلوب من المسلم ومن طالب العلم؛ أن يعرف التوحيد، وأن يدعو إليه، هذا هو المطلوب.

ماذا ينفع العلم الكثير من غير تحقيق ومن غير بصيرة؟! لا ينفع شيئاً، ولا يفيد صاحبه شيئاً، إذا لم يكن مبنياً على تحقيق وتوحيد وعبادة لله، ومعرفة للحق من الباطل، فإنه لا ينفع صاحبه، إذا كان مجرد اطلاع، أو مجرد ثقافة عامة.



ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ يَدْعُو الْمَلَائِكَةَ لِأَجْلِ صِلَاحِهِمْ، وَتُرْبِهِمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى؛
لِيَشْفَعُوا لَهُمْ. أَوْ يَدْعُو رَجُلًا صَالِحًا مِثْلَ اللَّاتِ، أَوْ نَبِيًّا مِثْلَ عِيسَى.

الشرح

هؤلاء المشركون متفرقون في عباداتهم: منهم من يعبد الملائكة، ومنهم من يعبد عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَام، ومنهم من يعبد الصالحين.

هذا دين المشركين، وهو الواقع في كثير من العالم الإسلامي اليوم -مع الأسف-، يعبدون الله، ويحجّون، ويصومون، ويصلّون، لكنهم واقعون في الشرك الأكبر؛ فيعبدون الأموات، ويذبحون لهم، ويستغيثون بهم، وقد يعتذر لهم بعض من لا بصيرة عنده بالتوحيد، فيقول: (هؤلاء معذورون، ولا يعتقدون في الأموات أنهم يخلقون ويرزقون، وإنما اتخذوهم وسائط وشفعاء)، فإن استحيا، قال: (هؤلاء مخطئون)، وربما يقول: (هؤلاء مجتهدون، والمجتهد مأجور)، أو يقول: (هؤلاء جهال)، وكيف يكونون جهالاً، والقرآن يتلى عليهم، والأحاديث تسمع، وكلام أهل العلم يتردد عليهم؟! بل هؤلاء معاندون؛ لأنهم قد قامت عليهم الحجة، فلم يقبلوها.

وهناك من يقول: (إن الإنسان مهما فعل ومهما قال لا يحكم عليه بالكفر ولا بالشرك، حتى يعلم ما في قلبه)، يا سبحان الله! هل نحن نعلم ما في القلوب، أو الله الذي يعلم ما في القلوب؟

نحن نحكم على الظواهر، أما البواطن، فلا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى، فالذي يعمل بالشرك، يحكم عليه أنه مشرك، ويعامل معاملة المشركين، حتى يتوب إلى الله تعالى، ويلتزم بعقيدة التوحيد؛ كما أن الذي يعمل بالتوحيد، وينطق بالشهادتين يعامل معاملة المسلمين، ما لم يظهر منه ما يناقض ذلك، فنعامل كلاً حسب ما يظهر منه.



وَعَرَفْتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَاتَلَهُمْ عَلَى هَذَا الشَّرِكِ، وَدَعَاهُمْ إِلَى إِخْلَاصِ
الْعِبَادَةِ لِلَّهِ وَحْدَهُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾
[الجن: ١٨]، وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ
بَشَيْءٌ﴾ [الرعد: ١٤].

الشرح

أي: وعرفت أن تعبدتهم الله مع الشرك به لم ينفعهم؛ لأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
لم يقبله منهم، بل دعاهم إلى إفراد الله بالعبادة وترك عبادة ما سواه.
وهذه الآية تمنع عبادة الملائكة، وتمنع عبادة الرسل، وتمنع عبادة
الصالحين؛ ففيها إبطال عبادة غير الله عَزَّجَلَّ كائنًا من كان، ولو كان أصحابها
لا يعتقدون فيهم أنهم يخلقون ويرزقون، وإنما يقولون: (إن هؤلاء صالحون)؛
فيتخذونهم وسائط بينهم وبين الله وشفعاء لهم عند الله عَزَّجَلَّ يقربونهم إلى
الله زلفى؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا
يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وفي زماننا
الحاضر يقولون: (هؤلاء وسائل نتوسل بهم إلى الله عَزَّجَلَّ)، وهذا كله دين
الجاهلية، وهو باطل؛ لأنه عبادة لغير الله عَزَّجَلَّ.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا
يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٤])، له دعوة الحق أي: العبادة الصحيحة؛ كما
قال تعالى: ﴿أَلِلَّهِ الَّذِينَ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، والله جَلَّ وَعَلَا لا يقبل إلا دعوة

الحق؛ يعني: الدين الخالص، أما الذي يعبد الله، ويعبد معه غيره، فهذه دعوة شرك، لا يقبلها الله.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ عام في كل من دُعي من دونه، سواء من الملائكة، أو من الرسل، أو من الصالحين، أو من الأصنام، أو من أي شيء.

وقوله: ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ أي: لا يستجيبون لمن دعاهم بشيء؛ لأنهم عاجزون، لا يقدرّون على شيء.



(فائدة في بيان معنى الرب والإله)

الله جَلَّ وَعَلَا في القرآن ذكر الرب في مواضع، وذكر الإله في مواضع؛
خذ -مثلاً- سورة الناس، يقول سُبْحَانَكَ وَتَعَالَى: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿قُلْ
أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾﴾ [الناس: ١-٣]، فما
الفرق بين رب الناس وإله الناس؟ هل هما بمعنى واحد؟ إذا يكون الكلام
مكرراً، أو أنها بمعنىين، فلا بد من معرفة الفرق بينهما، وكثيراً ما يأتي ذكر
الرب؛ كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَكَاتِ السَّجَّعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾
سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٦-٨٧]، فتكرر لفظ الرب، وتكرر لفظ الإله،
فما معنى كل منهما؟

فأرب معناه: المربي لخلقه بنعمه، ومغذيهم برزقه تربية جسمية بالأرزاق
والطعام، وتربية قلبية روحية بالوحي والعلم النافع وإرسال الرسل^(١).
ومن معاني الرب: أنه المالك للسموات والأرض، فرب الشيء مالكو
والمتصرف فيه.

ومن معاني الرب: المصلح، الذي يصلح الأشياء، ويدفع عنها ما
يفسدها، فالله سُبْحَانَكَ وَتَعَالَى هو الذي يصلح هذا الكون، وينظمه على مقتضى
إرادته وحكمته سُبْحَانَكَ وَتَعَالَى^(٢).

(١) قال أبو السعادات في النهاية في غريب الحديث (٢ / ١٧٩، ١٨٠): (الرب يطلق في اللغة
على المالك والسيد المدبر والمربي والقيم والمنعم، ويقال: ربه يربه أي كان له رباً، ويقال:
رب فلان ولده يربه رباً وربيه ورباه، كله بمعنى واحد). اهـ. بتصرف.
وانظر: تفسير الطبري (١ / ١٤٢-١٤٣).

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في مجموع الفتاوى (٢ / ٣٩٩): (فَهَذِهِ الْمَعَانِي =

أما الإله، فمعناه: المعبود؛ من آله يأله، بمعنى: عبد يُعبد، ف(إله) معناه: معبود^(١)، وليس معناه الرب، وإنما معناه: المعبود، والإلهية هي: العبادة، والوله هو: الحب؛ لأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَجِبُهُ عِبَادَةُ الْمُؤْمِنُونَ، ويخافونه، ويرجونه، ويتقربون إليه.

هذا هو معنى الإله، فتيين الفرق بين معنى الرب ومعنى الإله، وأنها ليسا بمعنى واحد^(٢)، ومن قال: (إنهما بمعنى واحد)، فقد غلط.

والعلماء يقولون: (إذا ذكرا جميعاً، صار الرب له معنى، والإله له معنى، وإذا ذكر واحد، دخل فيه معنى الرب، أما إذا ذكرا جميعاً - مثل ما في سورة الناس -، فإنه يكون للرب معنى، وللإله معنى آخر)^(٣)؛ كما في

= وَمَا أَشْبَهَهَا مِنْ مَعَانِي رُبُوبِيَّتِهِ وَمُلْكِهِ وَخَلْقِهِ وَرِزْقِهِ وَهَدَايَتِهِ وَنَصْرِهِ وَإِحْسَانِهِ وَبِرِّهِ وَتَدْبِيرِهِ وَصُنْعِهِ، ثُمَّ مَا يَتَّصِلُ بِذَلِكَ مِنْ أَنَّهُ يَكُلُّ شَيْءٍ عَلَيْهِ وَعَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ، لَا يَشْغَلُهُ سَمْعٌ عَنْ سَمْعٍ، وَلَا تُغْلِطُهُ الْمَسَائِلُ، وَلَا يَتَبَرَّمُ بِالْحَاحِ الْمُلْحِنِ، يُبْصِرُ ذَيْبَ النَّمْلَةِ السَّوْدَاءِ فِي اللَّيْلَةِ الظُّلُمَاءِ عَلَى الصَّخْرَةِ الصَّمَاءِ. فَهَذَا كُلُّهُ حَقٌّ. وَهُوَ مُحَضَّرٌ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ).

(١) انظر: لسان العرب (١٣/٤٦٧)، ومختار الصحاح (ص٩)، والقاموس المحيط (ص١٦٠٣)، ومختار الصحاح (ص٩)، والمصباح المنير (ص١٩).

(٢) قال الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ: (الرب، والإله، في صفة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، متلازمة، غير مترادفة؛ فالرب، من الملك، والتربية بالنعم؛ والإله، من التأله، وهو القصد، لجلب النفع، ودفع الضر بالعبادة؛ وكانت العرب تطلق الرب على: الإله، فسموا معبوداتهم أرباباً، لأجل ذلك، أي: لكونهم يسمون الله رباً، بمعنى إلهاً). انظر: الدرر السنية في الأجوبة النجدية (٣/١٢).

(٣) انظر: مؤلفات الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ في العقيدة (ص١٧)، والدرر السنية (١/٦٨)، والرسائل الشخصية - الرسالة الثانية (ص١٧).

لفظ الفقير والمسكين، إذا ذكرا جميعاً؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ
لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠]، صار للفقير معنى، وللمسكين معنى،
فالفقير هو: الذي لا يجد شيئاً، وأما المسكين فهو: الذي يجد بعض الكفاية،
فالمسكين أحسن حالاً من الفقير. ومثل لفظ الإسلام والإيمان، إذا ذكر
الإسلام والإيمان، صار الإسلام معناه: الأعمال الظاهرة، والإيمان معناه:
الأعمال الباطنة؛ كما في حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ». فَقَالَ
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا
رَسُولُ اللَّهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ
اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»، فسره بالأركان الظاهرة. «قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ.
قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ
وَشَرِّهِ»^(١)، فسره بالأعمال الباطنة، وهو إيمان القلب.

هذا إذا ذكرا جميعاً، صار لكل واحد معنى، وإذا ذكر أحدهما وحده،
دخل فيه الآخر.

ومن هنا نعرف الفرق -أيضاً- بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية؛
فتوحيد الربوبية هو: الإقرار بأن الله هو الخالق والرازق المحيي المميت؛ أي:
الاعتراف بأفعال الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى؛ وتوحيد الألوهية معناه: إفراد الله بأعمال
العباد، التي يتقربون بها إليه مما شرع. هذا معنى توحيد الألوهية، فهناك فرق
بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية.

(١) أخرجه البخاري (٥٠، ٤٧٧٧)، ومسلم (٨، ٩، ١٠).

وما دمنا قد عرفنا معنى توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، نأتي إلى حالة المشركين، الذين بعث إليهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنهم كانوا مقرّين بالنوع الأول، الذي هو توحيد الربوبية، ولم يدخلهم في الإسلام، بل اعتبرهم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كفارًا مشركين، وقاتلهم، وهم يقرون بتوحيد الربوبية، فهم أقرّوا بتوحيد الربوبية، وجحدوا توحيد الألوهية، لما طلب منهم أن يفردوا الله بالعبادة، ويتركوا عبادة الأصنام، قالوا: ﴿أَجْعَلِ لِلَّهِ إِلَهًا وَحَدًّا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥]؛ لأنه قال لهم: «قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^(١)، فهم فهموا معنى «لا إله إلا الله»، وهو أنه لا يعبد إلا الله وحده لا شريك له، وهم لهم أصنام، ولهم معبودات كثيرة، لا يريدون تركها والاقتصار على عبادة الله، وهذا لا يرضيهم، ولذلك أنكروا، وقالوا: ﴿أَجْعَلِ لِلَّهِ إِلَهًا وَحَدًّا﴾؛ طلب منا أن نعبد الله وحده، ونترك عبادة اللات والعزى ومناة وهبل وغيرها من الأصنام، هذا شيء لا يعقل عندهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آلِ مَلَكَةِ الْأَخْرَةِ﴾ [ص:٧]؛ ملة آبائهم، فهذا احتجاج بما عليه آبائهم؛ الحجة الملعونة التي احتجت بها الأمم من قبل، إذا دعوا إلى عبادة الله، حتى فرعون يقول: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ [طه:٥١]، فهم لما فهموا معنى «لا إله إلا الله»، استغربوا هذا، واستنكروه، وتواصوا برفضه، وفي الآية الأخرى يقول سبحانه فيهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾^(٢) وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَ هَٰئِنَا لَشَاعِرٍ يُجَنُّونَ ﴿[الصفات: ٣٥-٣٦].

(١) سبق تخريجه (ص ٣٥).

وهذا يبين معنى «لا إله إلا الله» تمامًا، ويوضحه، ويقطع الجدل؛ فإن فيه ردًا على من غلط في معنى «لا إله إلا الله».

فعلماء الكلام في مقرراتهم وعقائدهم يقولون: ((لا إله إلا الله» معناها: لا خالق، ولا رازق، ولا قادر على الاختراع، إلا الله)، هذا معنى الإله عندهم^(١).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: (والحاذق منهم من يقول: الإله هو القادر على الاختراع. وهذا غلط وجهل كبير باللغة وبالشرع المطهر؛ إذ معنى الإله: المعبود، الذي تأله القلوب، وتخضع له، وتتقرب إليه)^(٢)، فهم لم يفهموا معنى الإله، ولذلك يقولون: «لا إله إلا الله»، ويكثرون، ولهم أوراد في الليل والنهار يرددونها، ومع هذا يعبدون القبور والأضرحة، ويستغيثون بغير الله عَزَّجَلَّ، فلم يفهموا معنى «لا إله إلا الله»، وأنها تطلب منهم ترك عبادة القبور والأضرحة وعبادة ما سوى الله من الأصنام والأشجار والأحجار، فإذا قالوها، لزمهم ترك عبادة الأوثان، أما هؤلاء، فقالوها، وعبدوا غير الله، فالأولون أخطأ منهم، ولهذا يقول الشيخ: (فَلَا خَيْرَ فِي رَجُلٍ جُهَّالٍ الْكُفَّارِ أَعْلَمُ مِنْهُ بِمَعْنَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)^(٣).

(١) قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن رَحِمَهُ اللهُ في الدرر السنية (١/ ٣٢٠): (والأشاعرة أخطأوا في ثلاث من أصول الدين، وأخطأوا أيضًا في التوحيد ولم يعرفوا من تفسير لا إله إلا الله إلا معناها القادر على الاختراع..). وانظر أيضًا: مجموع الفتاوى (٣/ ١٠١)، ودرء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٢٦)، والملل والنحل (١/ ١٠٠).

(٢) انظر معنى كلامه في: التدمرية (١٨٥ - ١٨٦)، وفي مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٠٣).

(٣) يأتي قوله رَحِمَهُ اللهُ إن شاء الله.

وَتَحَقَّقْتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَاتَلَهُمْ؛ لِيَكُونَ الدُّعَاءُ كُلُّهُ لِلَّهِ،
وَالذَّبْحُ كُلُّهُ لِلَّهِ، وَالنَّذْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ، وَالِاسْتِغَاثَةُ كُلُّهَا بِاللَّهِ، وَجَمِيعُ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ
كُلُّهَا لِلَّهِ، وَعَرَفْتَ أَنَّ إِقْرَارَهُمْ بِتَوْحِيدِ الرَّبُّوبِيَّةِ لَمْ يُدْخِلْهُمْ فِي الْإِسْلَامِ، وَأَنَّ
قَصْدَهُمُ الْمَلَائِكَةَ، أَوِ الْأَنْبِيَاءَ، أَوِ الْأَوْلِيَاءَ يُرِيدُونَ شَفَاعَتَهُمْ وَالتَّقَرُّبَ إِلَى اللَّهِ
بِذَلِكَ هُوَ الَّذِي أَحَلَّ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، عَرَفْتَ حِينَئِذٍ التَّوْحِيدَ الَّذِي دَعَتْ
إِلَيْهِ الرُّسُلُ، وَأَبَى عَنِ الْإِقْرَارِ بِهِ الْمُشْرِكُونَ.

الشرح

قال رحمه الله: (وَتَحَقَّقْتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَاتَلَهُمْ لِيَكُونَ الدُّعَاءُ
كُلُّهُ لِلَّهِ، وَالذَّبْحُ كُلُّهُ لِلَّهِ، وَالنَّذْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ، وَالِاسْتِغَاثَةُ كُلُّهَا بِاللَّهِ، وَجَمِيعُ أَنْوَاعِ
الْعِبَادَةِ كُلُّهَا لِلَّهِ)؛ أي: لا يكون بعض ذلك لله وبعضه للبُدوي، وبعضه لله
وبعضه للحسين، لا بد أن يكون الدعاء كله لله، والذبح كله لله، والنذر كله
للله، وسائر العبادات كلها لله، وهذا هو الدين الصحيح، أما أن تكون العبادة
مشتركة بين الله وبين القبور والأضرحة والأولياء والصالحين، فهذا ليس
هو التوحيد، بل هذا هو دين المشركين، وإن كان صاحبه يعترف بتوحيد
الربوبية، ويصوم، ويصلي، ويحج، ويعتمر، إلى غير ذلك.

قال رحمه الله: (وَعَرَفْتَ أَنَّ إِقْرَارَهُمْ بِتَوْحِيدِ الرَّبُّوبِيَّةِ لَمْ يُدْخِلْهُمْ فِي
الْإِسْلَامِ)؛ أي: لما كان إقرارهم بتوحيد الربوبية -الذي ذكره الله عنهم،
وسجله عليهم-، لم يدخلهم في الإسلام، دلّ على أن التوحيد المطلوب
ليس هو توحيد الربوبية، وإنما هو توحيد الألوهية، وهو الفارق بين المسلم

والكافر، أما توحيد الربوبية، فكلُّ مقرب به -المسلم والكافر-، وهو لا ينفع وحده.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَأَنَّ قَصْدَهُمُ الْمَلَائِكَةُ، أَوْ الْأَنْبِيَاءُ، أَوْ الْأَوْلِيَاءُ يُرِيدُونَ شَفَاعَتَهُمْ وَالتَّقَرُّبَ إِلَى اللَّهِ بِذَلِكَ هُوَ الَّذِي أَحَلَّ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ)؛ أي: أنهم لم يقولوا: (إن الملائكة والأنبياء والأولياء الذين يعبدونهم يخلقون، ويرزقون، ويحيون، ويميتون)، ما قالوا هذا، وإنما اتخذوهم شفعاء ووسائط بينهم وبين الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، ما أرادوا منهم إلا الشفاعة، وزعموا أن هذا تعظيم لله، يقولون: (الله عظيم، ما يمكن أن نصل إليه بدعائنا، لكن نتخذ من يوصل إليه حاجاتنا من عباده الصالحين؛ من الملائكة، والرسل، والصالحين)، فقاوسوا الله على ملوك الدنيا، الذين يتوسط عندهم أصحاب الحاجات بالمقرين عندهم، فهم لم يعتقدوا فيهم أنهم يخلقون، ويرزقون؛ كما يقول الجاهل: (إن الشرك هو اعتقاد أن أحداً يخلق مع الله، أو يرزق مع الله)، هذا ما قاله أحد من عقلاء بني آدم، وإنما قصدهم الشفاعة، وفي الآية الأخرى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، يقولون: (نحن عباد ضعفاء، والله جَلَّ وَعَلَا شأنه عظيم، ولانتم وصل إليه، فهؤلاء يقربونا إلى الله زلفى)، شبهوا الله بملوك الدنيا، هذا هو أصل الكفر، فدل على أنهم لم يعتقدوا فيهم الشرك في الربوبية، وإنما اعتقدوا فيهم الشرك في الألوهية، فإذا سألت أي واحد الآن يذبح للقبور، أو ينذر لها: ما الذي حملك على هذا؟ فإنهم يقولون كلهم بلسان واحد: (والله ما اعتقدنا أنهم يخلقون ويرزقون، وأنهم يملكون شيئاً من السماوات والأرض، إنما

اعتقدنا أنهم وسائط؛ لأنهم صالحون، يوصلون إلى الله حاجتنا، ويبلغونه حاجتنا، هذا قصدنا)، ومع هذا سباهم الله مشركين، وأمر نبيه بجهادهم؛ كما قال تعالى: ﴿ فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُواهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٥]، مع أنهم يقولون: (لا نعتقد أنهم يخلقون، ويرزقون، ويدبرون مع الله، وإنما قصدنا اتخاذهم وسائط، فنحن نذبح لهم، وننذر لهم، ونتوسل بهم؛ لأن الله لا يصل إليه شيء من أمورنا، إلا بواسطتهم، فهم يوصلونه إلى الله، ويكونون وسائط يقربونا إلى الله زلفى، وشفعاء عند الله)، هذه شبهتهم قديماً، وهذه شبهة عباد القبور اليوم؛ ﴿ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾، فتشابهت أقوالهم وأفعالهم.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (عَرَفْتَ حَيْثُ التَّوْحِيدِ الَّذِي دَعَتْ إِلَيْهِ الرُّسُلُ، وَأَبَى عَنْ الإِقْرَارِ بِهِ الْمُشْرِكُونَ)؛ أي: إذا فهمت ما سبق من الآيات البينات، التي تدل على أن المشركين الأولين لم يشركوا في الربوبية، وإنما أشركوا في الألوهية، فاتخذوا الآلهة من دون الله؛ لتقربهم إلى الله عَزَّجَلَّ، وتشفع لهم عنده. إذا تبين لك هذا، عرفت أن التوحيد الذي دعت إليه الرسل وجحدته المشركون هو توحيد الألوهية، لا توحيد الربوبية، وأن الإقرار بتوحيد الربوبية وحده لا يكفي، ولا يدخل من أقرب به في الإسلام.

ومعرفة ذلك أمر مهم جداً؛ إذ به يعرف التوحيد والشرك والإسلام والكفر.

والجهل بذلك ضرره عظيم، وخطره كبير؛ لأن الإنسان قد يخرج من الإسلام، وهو لا يدري.

وَهَذَا التَّوْحِيدُ هُوَ مَعْنَى قَوْلِكَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِنَّ إِلَهَهُمْ هُوَ
الَّذِي يُقْصَدُ لِأَجْلِ هَذِهِ الْأُمُورِ، سَوَاءً كَانَ مَلَكًا، أَوْ نَبِيًّا، أَوْ وَلِيًّا، أَوْ شَجَرَةً،
أَوْ قَبْرًا، أَوْ جَنِيًّا، لَمْ يُرِيدُوا أَنَّ إِلَهَهُ هُوَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ الْمُدَبِّرُ، فَإِنَّهُمْ يَعْلَمُونَ
أَنَّ ذَلِكَ لِلَّهِ وَحْدَهُ - كَمَا قَدَّمْتُ لَكَ -، وَإِنَّمَا يَعْنُونَ بِإِلَهِ مَا يَعْنِي الْمُشْرِكُونَ
فِي زَمَانِنَا بِلَفْظِ السَّيِّدِ، فَأَتَاهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُوهُمْ إِلَى كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ،
وَهِيَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وَالْمُرَادُ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَةِ مَعْنَاهَا، لَا مُجَرَّدُ لَفْظِهَا، وَالْكُفَّارُ
الْجُهَالُ يَعْلَمُونَ أَنَّ مُرَادَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ هُوَ إِفْرَادُ اللَّهِ تَعَالَى
بِالتَّعَلُّقِ، وَالْكُفْرُ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ، وَالْبَرَاءَةُ مِنْهُ؛ فَإِنَّهُ لَمَّا قَالَ لَهُمْ: «قُولُوا:
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^(١)، قَالُوا: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ جُهَالَ الْكُفَّارِ يَعْرِفُونَ ذَلِكَ، فَالْعَجَبُ مِمَّنْ يَدَّعِي الْإِسْلَامَ،
وَهُوَ لَا يَعْرِفُ مِنْ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ مَا عَرَفَ جُهَالُ الْكُفَّارِ، بَلْ يَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ
هُوَ التَّلَفُّظُ بِحُرُوفِهَا مِنْ غَيْرِ اعْتِقَادِ الْقَلْبِ لِشَيْءٍ مِنَ الْمَعَانِي، وَالْحَادِثُ مِنْهُمْ
يَظُنُّ أَنَّ مَعْنَاهَا: لَا يَخْلُقُ، وَلَا يَرْزُقُ، وَلَا يُدَبِّرُ الْأَمْرَ إِلَّا اللَّهُ. فَلَا خَيْرَ فِي رَجُلٍ
جُهَالُ الْكُفَّارِ أَعْلَمُ مِنْهُ بِمَعْنَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

• الشرح •

قال رحمه الله: (وَهَذَا التَّوْحِيدُ هُوَ مَعْنَى قَوْلِكَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)؛ أي: معنى
«لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» هو توحيد الألوهية، لا توحيد الربوبية؛ لأنه لو كان معناها
توحيد الربوبية، لما قال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْمُشْرِكِينَ: «قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»؛

لأنهم يقولون: (إن الله هو الخالق الرازق، المحيي المميت، وإنه حينئذ يطلب منهم ما هو تحصيل حاصل، ويقاثلهم على شيء يعترفون به، ويقرون به)، وهذا القول باطل.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (فَإِنَّ الْإِلَهَ عِنْدَهُمْ هُوَ الَّذِي يُقْصَدُ لِأَجْلِ هَذِهِ الْأُمُورِ، سَوَاءً كَانَ مَلَكًا، أَوْ نَبِيًّا، أَوْ وَلِيًّا، أَوْ شَجَرَةً، أَوْ قَبْرًا، أَوْ جَنِيًّا)، هذا تعليل لما سبق في تقرير معنى «لا إله إلا الله»، وأنه توحيد الألوهية؛ لأن الإله عند مشركي العرب هو الذي يقصد لقضاء الحاجات، وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفان، وليس الإله عندهم هو الذي يخلق ويرزق ويدبر، ليس هذا هو الإله عندهم، فالشرك عندهم لم يقع في توحيد الربوبية، وإنما وقع في توحيد الإلهية.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (لَمْ يُرِيدُوا أَنَّ الْإِلَهَ هُوَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ الْمُدَبِّرُ، فَإِنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ ذَلِكَ لِلَّهِ وَحْدَهُ كَمَا قَدَّمْتُ لَكَ، وَإِنَّمَا يَعْنُونَ بِالْإِلَهِ مَا يَعْنِي الْمُشْرِكُونَ فِي زَمَانِنَا بِلَفْظِ السَّيِّدِ)؛ أي: ليس الإله عند المشركين الأولين هو الخالق الرازق المدبر؛ لأن هذا معنى الرب، وفرق بين معنى الرب ومعنى الإله، وفرق بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، وإنما يعنون بالإله ما يعني المشركون في زماننا -أي: زمان المؤلف- بلفظ السيد، وإلى الآن يسمون هؤلاء الذي يدعون صلاحهم، ويتقربون إليهم، يسمونهم السادة؛ كالسيد البدوي، والسيد الرفاعي، والسيد التيجاني، إلى غير ذلك، يعتقدون أن هؤلاء السادة لهم منزلة عند الله، تؤهلهم أن يتوسطوا لهم عند الله، وتؤهلهم أن يدعوا من دون الله، ويذبح وينذر لهم، ويطاف بقبورهم، ويتبرك بها.

فالمشركون الأولون يسمون هذه الأشياء آلهة، والمشركون المتأخرون يسمون هذه الأشياء وسائط، ووسائل، وشفعاء. والأساء لا تغير الحقائق؛ فهي آلهة.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (فَاتَاهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُوهُمْ إِلَى كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ، وَهِيَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَالْمُرَادُ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَةِ مَعْنَاهَا لَا مُجَرَّدُ لَفْظِهَا)؛ أي: أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعا المشركين إلى تحقيق معنى «لا إله إلا الله»، التي هي كلمة التوحيد، ومعناها: (لا معبود بحق إلا الله)، وهو الذي بعث الله به رسوله إلى المشركين، ولم يبعثه إليهم يدعوهم إلى توحيد الربوبية؛ لأنهم مقرّون به، وهو لا يكفي؛ لأنه قاتلهم، وهم يقرون به، ومن قال: (إنه يكفي)، فإنه يلزم عليه تغليب الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنه قاتل أناسًا مسلمين، يعترفون ب«لا إله إلا الله»، إذا فسرناها بتوحيد الربوبية، وهو الإقرار بالخالق الرازق القادر على الاختراع.

ومع الأسف هذا التفسير الخاطئ ل«لا إله إلا الله» موجود في كتب العقائد، التي ألفها علماء الكلام وعلماء المنطق من المعتزلة والأشاعرة، والتي تدرّس في كثير من المعاهد الإسلامية الآن. وعقائدهم مبنية على هذا الرأي، وأن الإله معناه: (القادر على الاختراع)، فمن اعترف أن الله هو الخالق الرازق، يعتبر موحدًا، وأما من اعتقد أن أحدًا يخلق أو يرزق مع الله، فهذا هو المشرك عندهم، مع أن الشرك إنما وقع في توحيد الألوهية، ولم يقع في هذا، وليس هذا هو معنى «لا إله إلا الله»، وإنما معناها: (لا معبود بحق إلا الله)، فمن قال: «لا إله إلا الله»، وجب عليه أن يفرد الله بالعبادة، وأن يترك

عبادة ما سواه؛ فإن المقصود من هذه الكلمة معناها، والعمل بمقتضاها، لا مجرد النطق بها دون عمل بمعناها ومقتضاها، فمن قالها، وهو يعبد غير الله، لم يكن عاملاً بمقتضاها، وهو ترك الشرك، ولا ينفعه مجرد النطق بها؛ لأنه قد ناقض فعله قوله، والمشركون الأولون لما سمعوا هذه الكلمة، عرفوا معناها، وأنه ليس المقصود التلفظ بها فقط، ولذلك قالوا: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾ [ص: ٥].

وفي وقتنا هذا وجد من يفسر «لا إله إلا الله» بأن معناها هو إفراد الله بالحاكمية، وهذا غلط؛ لأن الحاكمية جزء من معنى «لا إله إلا الله»، وليست هي الأصل لمعنى هذه الكلمة العظيمة، بل معناها: (لا معبود بحق إلا الله بجميع أنواع العبادات)، ويدخل فيها الحاكمية، ولو اقتصر الناس على الحاكمية، فقاموا بها دون بقية أنواع العبادة، لم يكونوا مسلمين، ولهذا تجد أصحاب هذه الفكرة لا ينهون عن الشرك، ولا يهتمون به، ويسمونهم: «الشرك الساذج»، وإنما الشرك عندهم الشرك في الحاكمية فقط، وهو ما يسمونه: «الشرك السياسي»، فلذلك يركزون عليه دون غيره، ويفسرون الشرك بأنه طاعة الحكام الظلمة.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَالْكَفَّارُ الْجُهَالُ يَعْلَمُونَ أَنَّ مُرَادَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهِ هَذِهِ الْكَلِمَةُ هُوَ إِفْرَادُ اللهِ تَعَالَى بِالتَّعَلُّقِ، وَالْكَفْرُ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ، وَالْبَرَاءَةُ مِنْهُ؛ فَإِنَّهُ لَمَّا قَالَ لَهُمْ: «قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، قَالُوا: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾ [ص: ٥]؛ أي: الكفار يعرفون معنى «لا إله إلا الله»، ولهذا لما قال لهم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، قَالُوا: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ

إِلَهِهَا وَحِدًا ﴿[ص:٥]﴾، ولما قال لهم: «قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، قالوا: ﴿أَيُّنَا لَتَارِكُوا
إِلَهَتِنَا لِشَاعِرٍ تَجْنُونِ﴾ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿[الصفات: ٣٦-٣٧]﴾، فهم
فهموا معنى «لا إله إلا الله»، وأبوا أن يعترفوا به؛ لأنه يُلزِمُهُم بترك عبادة
الأصنام، وهم لا يريدون هذا، وإنما يريدون البقاء على عبادة الأصنام، ولم
يجرؤوا أن يقولوا: «لا إله إلا الله»، ويبقوا على عبادة الأصنام؛ لأن في هذا
تناقضًا، وهم يأنفون من التناقض، في حين أن كثيرًا من الممتنمين إلى الإسلام
اليوم لا يأنفون من هذا التناقض؛ فهم يقولون: «لا إله إلا الله» بحروفها،
ولكنهم يخالفونها، ويعبدون غير الله - من القبور، والأضرحة، والصالحين؛ بل
والأشجار، والأحجار، وغير ذلك -؛ فهم لا يفهمون معنى «لا إله إلا الله».

فلا يكفي التلفظ بـ«لا إله إلا الله» دون علم بمعناها وعمل بمقتضاها،
بل لابد من العلم بمعناها أولاً، ثم العمل بمقتضاها؛ لأنه لا يمكن أن يعمل
بمقتضاها، وهو يجهل معناها، ولهذا يقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
وَأَسْتَغْفِرْ لَذُنُوبِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩]، فبدأ بالعلم قبل القول
والعمل، فالذي يجهل معنى «لا إله إلا الله» لا يمكن أن يعمل بمقتضاها
على الوجه الصحيح.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ جُهَالَ الْكُفَّارِ يَعْرِفُونَ ذَلِكَ فَالْعَجَبُ
مِمَّنْ يَدَّعِي الْإِسْلَامَ وَهُوَ لَا يَعْرِفُ مِنْ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ مَا عَرَفَ جُهَالَ
الْكُفَّارِ، بَلْ يَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ التَّلَفُّظُ بِحُرُوفِهَا مِنْ غَيْرِ اعْتِقَادِ الْقَلْبِ لِشَيْءٍ
مِنَ الْمَعَانِي)، هذا من أعجب العجب؛ أن جهال الكفار والمشركين في عهد
النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعرفون أن معنى هذه الكلمة هو إخلاص العبادة لله،

وترك عبادة غيره - فلذلك امتنعوا عن النطق بها؛ تحاشياً لترك عبادة آلهتهم، وتعصباً لباطلهم -، ومن يدعي الإسلام اليوم لا يفهم أن معنى هذه الكلمة هو ترك عبادة القبور والأضرحة، وإخلاص العبادة لله، فلذلك صار يقولها، وهو مقيم على شركه، لا يأنف التناقض والجمع بين الضدين، فصار جهال الكفار أعلم منه بمعنى «لا إله إلا الله»، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم! وصار هذا المدعي للإسلام يظن أن المراد بهذه الكلمة هو النطق بحروفها، من غير اعتقاد لمعناها، فصار يردد معها دعاء الموتى والمقبرين ليلاً ونهاراً.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَالْحَاقِظُ مِنْهُمْ يَظُنُّ أَنَّ مَعْنَاهَا: لَا يَخْلُقُ، وَلَا يَرْزُقُ، وَلَا يُدَبِّرُ الْأَمْرَ إِلَّا اللهُ. فَلَا خَيْرَ فِي رَجُلٍ جُهَّالٍ الْكُفَّارِ أَعْلَمُ مِنْهُ بِمَعْنَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)؛ كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في الرسالة التدمرية وغيرها^(١) عن علماء الكلام؛ أن الإله عندهم هو القادر على الاختراع؛ يعني: هو الذي يقدر على الخلق والرزق، والإحياء والإماتة، ويبنون عقائدهم على هذا، ويفسرون «لا إله إلا الله» بهذا المعنى، ويجعلون التوحيد هو الإقرار بتوحيد الربوبية، وهذا غلط عظيم.

فإذا كان هذا حال العالم منهم، فكيف بالجاهل؟! وما هذا إلا من قلة الاهتمام بدعوة التوحيد، وتقليد الآباء والأجداد، والاكتفاء من الإسلام بمجرد الانتساب لأغراض وأهداف دنيوية - الله أعلم بها -، من غير تعرّف على الدين الحقيقي، الذي أساسه التوحيد الخالص.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (فَلَا خَيْرَ فِي رَجُلٍ جُهَّالٍ الْكُفَّارِ أَعْلَمَ مِنْهُ بِمَعْنَى «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»)، لا خير في رجل يدعي الإسلام، بل يدعي أنه من أهل العلم، ولا يفهم معنى «لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، وقد فهمها كفار قريش، وعرفوا معناها.

إن الأمر خطير، والعار شنيع، والواجب على المسلمين أن ينتبهوا لدينهم، ويتأملوا دعوة نبيهم، ويفقهوا دينهم فقهاً صحيحاً، ويقيموا على أساس سليم؛ من عقيدة التوحيد، والبراءة من الشرك وأهله، ولا يكتفوا بمجرد التسمي والانتساب إليه، مع البقاء على الرسوم والعادات المخالفة له، وترديد عبارات جوفاء، لا تسمن ولا تغني من جوع.



إِذَا عَرَفْتَ مَا قُلْتُ لَكَ مَعْرِفَةً قَلْبٍ، وَعَرَفْتَ الشَّرْكَ بِاللَّهِ الَّذِي
قَالَ اللَّهُ فِيهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾
[النساء: ٤٨]، وَعَرَفْتَ دِينَ اللَّهِ الَّذِي بَعَثَ بِهِ الرُّسُلَ مِنْ أَوْلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ، الَّذِي
لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْ أَحَدٍ سِوَاهُ، وَعَرَفْتَ مَا أَصْبَحَ غَالِبَ النَّاسِ عَلَيْهِ مِنَ الْجَهْلِ
بِهَذَا، أَفَادَكَ فَائِدَتَيْنِ:

الأولى: الْفَرَحُ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ
فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

وَأَفَادَكَ أَيْضًا: الْخَوْفَ الْعَظِيمَ؛ فَإِنَّكَ إِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَكْفُرُ بِكَلِمَةٍ
يُخْرِجُهَا مِنْ لِسَانِهِ، وَقَدْ يَقُولُهَا وَهُوَ جَاهِلٌ، فَلَا يُعَذِّرُ بِالْجَهْلِ، وَقَدْ يَقُولُهَا،
وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهَا تُقَرِّبُهُ إِلَى اللَّهِ؛ كَمَا ظَنَّ الْمُشْرِكُونَ، خُصُوصًا إِنْ أَلْهَمَكَ اللَّهُ تَعَالَى
مَا قَصَّ عَنْ قَوْمِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ صَلَاحِهِمْ وَعِلْمِهِمْ؛ أَنَّهُمْ أَتَوْهُ قَائِلِينَ:
﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، فَحِينَئِذٍ يَعْظُمُ خَوْفُكَ،
وَحِرْصُكَ عَلَى مَا يُخَلِّصُكَ مِنْ هَذَا وَأَمْثَالِهِ.

• الشَّرْحُ •

قال رحمه الله: (إِذَا عَرَفْتَ مَا قُلْتُ لَكَ مَعْرِفَةً قَلْبٍ)؛ أي: إِذَا عَرَفْتَ مَا
ذكرت لك من الفرق بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، وعرفت أن
المشركين أقروا بالأول، وجحدوا الثاني، فلم يدخلهم في الإسلام، وقُتِلُوا،
واستُحِلَّتْ دِمَاؤُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ، إِذَا عَرَفْتَ هَذِهِ الْأُمُورَ مَعْرِفَةً قَلْبٍ، لَا مَعْرِفَةً
لِسَانٍ فَقَطْ؛ كَأَنْ يَحْفَظَ الْإِنْسَانُ هَذَا الْمَعْنَى، وَيُؤَدِّيهِ فِي الْامْتِحَانِ، وَيَنْجَحُ فِيهِ،

ولم يتفقه فيه في قلبه، ويفهمه تمامًا، فهذا لا يكفي؛ فالعلم هو علم القلب وعلم البصيرة، لا علم اللسان فقط.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَعَرَفْتَ الشِّرْكَ بِاللَّهِ الَّذِي قَالَ اللهُ فِيهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨])؛ أي: الشرك في العبادة، لا الشرك الذي هو اعتقاد أن أحدًا يخلق ويرزق ويدبر مع الله، بل الشرك الذي حذر الله منه هو اعتقاد أن أحدًا يستحق العبادة أو شيئًا من العبادة مع الله.

فالشرك هو دعوة غير الله معه، أو صرف شيء من أنواع العبادة لغير الله، هذا هو الشرك الذي حرمه الله، وحرّم على صاحبه الجنة، وأخبر أن مأواه النار، وهو الشرك الذي يحبط جميع الأعمال، وهو الشرك في الألوهية، وليس الشرك في الربوبية، وهذا تنبيه من الشيخ رَحِمَهُ اللهُ إلى أنه كما تجب معرفة التوحيد تجب معرفة الشرك.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَعَرَفْتَ دِينَ اللهِ الَّذِي بَعَثَ بِهِ الرُّسُلَ مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ، الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْ أَحَدٍ سِوَاهُ)، دين الرسل هو الإسلام، وهو: الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك وأهله^(١)، هذا هو دين الرسل، وهذا هو الإسلام.

وأما الانتساب إلى الإسلام في الظاهر دون الباطن، أو الانتساب إليه بالتسمي فقط دون التزام لأحكامه، أو الانتساب إليه مع ارتكاب ما يناقضه من الشرك والوثنيات، أو الانتساب إليه مع الجهل بحقيقته، أو الانتساب

(١) انظر: ثلاثة الأصول وأدلتها - وشروط الصلاة - والقواعد الأربع (ص ١٤).

إليه دون موالاة لأوليائه ومعاداة لأعدائه، فليس هذا هو الإسلام الذي جاءت به رسل الله، وإنما هو إسلام اصطلاحي مصطنع، لا يغني ولا ينفع عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وليس هو دين الرسل.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَعَرَفْتَ مَا أَصْبَحَ غَالِبَ النَّاسِ عَلَيْهِ مِنَ الْجَهْلِ بِهَذَا)، وهو الجهل بالتوحيد والجهل بالشرك، هذا هو الذي أوقع كثيرًا من الناس في الضلال، وهو أنهم يجهلون التوحيد الصحيح، ويجهلون الشرك، ويفسرون كلاً منهما بغير تفسيره الصحيح، هذا هو الذي أوقع كثيرًا من الناس في الغلط، والكفر، والشرك، والبدع، والمحدثات، إلى غير ذلك، وذلك بسبب عدم معرفة ما أمر الله به من توحيده وطاعته، وما نهى عنه من الإشراف به ومعصيته، فالعوام لا يتعلمون، وغالب العلماء مكبون على علم الكلام والمنطق، الذي بنوا عليه عقيدتهم، وهو لا يحق حقًا، ولا يبطل باطلاً، بل هو كما قال بعض العلماء: (لا ينفع العلم به ولا يضر الجهل به)^(١).

قال رَحِمَهُ اللهُ: (أَفَادَكَ فَائِدَتَيْنِ: الْأُولَى: الْفَرْحُ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، وَأَفَادَكَ أَيُّضًا: الْخَوْفُ الْعَظِيمُ؛ أَي: الْعِلْمُ بِهَذِهِ الْحَقَائِقِ يَفِيدُكَ فَائِدَتَيْنِ:

الفائدة الأولى: أنك تفرح بفضل الله؛ حيث منَّ عليك بمعرفة الحق من الباطل، فإنها نعمة عظيمة، حُرِّمَ منها الكثير من الخلق، قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾، وفضل الله هو

(١) انظر: كتاب الرد على المنطقيين لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص ٣) بنحوه.

الإسلام، ورحمته هي القرآن، ﴿فَلْيَفْرَحُوا﴾ فرح شكر واعتراف بالنعمة، والفرح بفضل الله مشروع؛ لأنه شكر الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى على نعمة التوحيد ومعرفة الشرك، وهذه نعمة إذا وُفِّقت لها، فإنه قد جمع لك الخير كله.

الفرح بالنعمة مشروع، أما الفرح المنهي عنه، فهو الفرح بالدنيا؛ كما قال تعالى: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ﴾ [الرعد: ٢٦]، فالفرح بالدنيا وحُطَامُهَا مذموم، أما الفرح بالدين والفرح بالعلم النافع، فهذا مشروع؛ لأن الله أمر به.

والفائدة الثانية: أنك إذا عرفت التوحيد الصحيح، وعرفت الشرك القبيح، فإن ذلك يُفيدك الخوف أن تقع فيما وقع فيه كثير من الناس بالمخالفة لهذا الأصل، والوقوع في الشرك وأنت لا تدري، فلاتأمن على نفسك من الفتنة، فلا تغتر بعلمك أو بفهمك، ولكن قل: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، واسأل الله الثبات؛ فإن إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي أعطاه الله من العلم واليقين ما لم يعط غيره إلا نبياً يقول: ﴿وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ (٥٥) رَبِّ إِيَّاهُنَّ أَضَلَّلَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ﴿[إبراهيم: ٣٥-٣٦]، فإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يأمن على نفسه الفتنة، مع علمه ويقينه، وهو الذي كَسَّرَ الأصنام بيده، وألقي في النار بسبب ذلك، ومع هذا يخاف على نفسه من الفتنة، فلاتغتر بعلمك وتأمن على نفسك من الفتنة، ولكن كن دائماً على حذر من الفتنة؛ بأن لا تزل بك القدم وتغتر بشيء يكون سبباً لهلاكك وضلالك؛ فإن بعض المغرورين اليوم يقول: (إن الناس تجاوزوا مرحلة الجهل والبدائية، وصاروا مثقفين واعين، لا يتصور أن يعودوا للوثنية، أو نحواً من هذا الكلام الفارغ)،

ولم يفتن لعبادة الأضرحة، التي تنتشر في كثير من البلاد الإسلامية، ولم ينظر فيما وصل إليه كثير من الناس من الجهل بالتوحيد.

قال رحمه الله: (فَإِنَّكَ إِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَكْفُرُ بِكَلِمَةٍ يُخْرِجُهَا مِنْ لِسَانِهِ، وَقَدْ يَقُولُهَا وَهُوَ جَاهِلٌ فَلَا يُعْذَرُ بِالْجَهْلِ)، قد يقول الإنسان كلمة من الكفر تُحْبِطُ عمله كله؛ كالرجل الذي قال: «وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِضَلَانٍ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأْتَى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِضَلَانٍ؟ إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ، وَأَخْبَطْتُ عَمَلَكَ»^(١)، كلمة واحدة تجرأ فيها على الله، وأراد أن يمنع الله أن يغفر لهذا المذنب، فالله جَلَّ وَعَلَا أَحْبَطَ عمله، وغضب عليه. والإنسان قد يتكلم بمثل هذه الكلمة ونحوها، فيخرج من دين الإسلام، فالذين مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما قالوا: «مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَائِنَا هَؤُلَاءِ أَرْغَبَ بُطُونًا، وَلَا أَكْذَبَ أَلْسِنَةً، وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللَّقَاءِ»، يزعمون أنهم قالوها من باب المزح، ويقطعون بها الطريق بزعمهم، قال الله فيهم: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٦٥) لَا تَعْزِدُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴿٢﴾، دل على أنهم

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢١) من حديث جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٧٢/١٠)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٨٢٩/٦) عَنْ ابْنِ عُمَرَ، وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ، وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، وَقَتَادَةَ - دَخَلَ حَدِيثُ بَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ: «أَنَّهُ قَالَ رَجُلٌ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَائِنَا هَؤُلَاءِ أَرْغَبَ بُطُونًا وَلَا أَكْذَبَ أَلْسِنَةً وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللَّقَاءِ، يَعْنِي: رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابَهُ الْقُرَاءَ - فَقَالَ لَهُ عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ، لَأُخْبِرَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَذَهَبَ عَوْفٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيُخْبِرَهُ، فَوَجَدَ الْقُرْآنَ قَدْ سَبَقَهُ، فَجَاءَ ذَلِكَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَدْ ازْتَحَلَ وَرَكِبَ نَاقَتَهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا كُنَّا نَحُوضُ وَتَنَحَّدُ حَدِيثَ الرَّكْبِ، نَقْطَعُ بِهِ عَنَّا الطَّرِيقَ».

مؤمنون في الأول، فلما قالوا هذه الكلمة، كفروا -والعياذ بالله-، مع أنهم يقولونها من باب المزح واللعب.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَدْ يَقُولُهَا وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهَا تُقَرِّبُهُ إِلَى اللَّهِ كَمَا ظَنَّ الْمُشْرِكُونَ)؛ أي: يقول كلمة الكفر، وهو يظن أنها تقربه إلى الله؛ مثل ما يقول المشركون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (خُصُوصًا إِنَّ أَلْهَمَكَ اللَّهُ تَعَالَى مَا قَصَّ عَنْ قَوْمِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ صَلَاحِهِمْ وَعِلْمِهِمْ أَنَّهُمْ أَتَوْهُ قَائِلِينَ: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، فَحِينَئِذٍ يَعْظُمُ خَوْفُكَ، وَحِرْصُكَ عَلَى مَا يُخْلَصُكَ مِنْ هَذَا وَأَمْثَالِهِ)، قوم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ هم بنو إسرائيل الذين آمنوا بموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، خرجوا معه من مصر؛ حيث أمره الله أن يخرج بهم فرارًا من فرعون، فخفي عليهم هذا الأمر، مع أنهم علماء، وفيهم صلاح وتقوى، وخرجوا مع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مقاطعين لفرعون وقومه، فلما أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، أرادوا تقليدهم في ذلك، وطلبوا من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقالوا: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ٣٨]، فأنكر عليهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ هذه المقالة، وأخبرهم أن عمل هؤلاء القوم شرك بالله عَزَّوَجَلَّ، فانظر كيف خفي عليهم هذا الأمر؛ مما يدل على خطورة الجهل بالتوحيد وعدم معرفة

= قَالَ ابْنُ عُمَرَ: «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ مُتَعَلِّقًا بِسَعَةِ نَاقَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَإِنَّ الْحِجَارَةَ لَتَنُكَبُ رِجْلَيْهِ، وَهُوَ يَقُولُ: ﴿قُلْ أَيْدِيهِمْ وَرِشْوَتُهُمْ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ ١٥ لَا تَعْتَدُوا فَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ مَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ، وَمَا يَزِيدُهُ عَلَيْهِ».

حقيقة الشرك، مما يسبب أن الإنسان قد يقول الكلمة التي تقتضي الكفر والخروج من الدين، وهو لا يدري.

ولا يخلصك من هذا وأمثاله إلا العلم النافع، الذي به تعرف التوحيد من الشرك، وتحذر به من القول أو الفعل اللذين يوقعانك في الشرك من حيث لا تدري، وهذا يدل على بطلان قول من يقول: (إن من قال كلمة الكفر، أو عمل الكفر لا يكفر، حتى يعتقد بقلبه ما يقول ويفعل)، ومن يقول: (إن الجاهل يعذر مطلقاً، ولو كان بإمكانه أن يسأل ويتعلم)، وهي مقالة ظهرت ممن ينتسبون إلى العلم والحديث في هذا الزمان.



وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ مِنْ حِكْمَتِهِ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا بِهَذَا التَّوْحِيدِ إِلَّا جَعَلَ لَهُ
 أَعْدَاءً؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَاطِئِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ
 يُوحَى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، وَقَدْ يَكُونُ لِأَعْدَاءِ
 التَّوْحِيدِ عُلُومٌ كَثِيرَةٌ وَكُتُبٌ وَحُجَجٌ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ
 بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [غافر: ٨٣].

الشرح

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ مِنْ حِكْمَتِهِ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا بِهَذَا التَّوْحِيدِ
 إِلَّا جَعَلَ لَهُ أَعْدَاءً؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَاطِئِينَ
 الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحَى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، وَقَدْ
 يَكُونُ لِأَعْدَاءِ التَّوْحِيدِ عُلُومٌ كَثِيرَةٌ وَكُتُبٌ وَحُجَجٌ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا
 جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [غافر: ٨٣]، حِكْمَةُ
 اللَّهِ تَعَالَى فِي هَذَا تَتَلَخَّصُ فِي أَمْرَيْنِ:

الأمر الأول: أَنَّهُ مَا بَعَثَ نَبِيًّا مِنْ أَنْبِيَائِهِ، إِلَّا جَعَلَ لَهُ أَعْدَاءً مِنَ الْمُشْرِكِينَ؛
 كَمَا فِي الْآيَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا الْمُؤَلِّفُ، وَكَمَا فِي الْآيَةِ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا
 مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١]، وَاللَّهُ فِي ذَلِكَ الْحِكْمَةَ؛
 مِنْ أَجْلِ أَنْ يَتَبَيَّنَ الصَّادِقُ مِنَ الْكَاذِبِ، وَيَتَبَيَّنَ الْمَطِيعُ مِنَ الْعَاصِي، إِذَا بَعَثَ
 الْأَنْبِيَاءُ يَدْعُونَ إِلَى الْهُدَى، صَارَ هُنَاكَ دَعَاةٌ لِلضَّلَالِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَمْتَحَنَ
 النَّاسُ: أَيُّهُمْ يَتَّبِعُ الْأَنْبِيَاءَ؟ وَأَيُّهُمْ يَتَّبِعُ دَعَاةَ الضَّلَالِ؟ وَلَوْ لَا ذَلِكَ، لَكَانَ
 النَّاسُ كُلُّهُمْ يَتَّبِعُونَ الْأَنْبِيَاءَ، وَلَوْ فِي الظَّاهِرِ، وَلَا يَتَمَيَّزُ الصَّادِقُ فِي اتِّبَاعِهِ

من المنافق؛ لأن الأنبياء يتَّبِعُهُمُ الْمُؤْمِنُ الصَّادِقُ، وَيَتَّبِعُهُمُ الْمُنَافِقُ الْكَاذِبُ،
والذي يميز هذا من هذا هو الابتلاء والامتحان، فالشدائد هي التي تبيِّن
الصادقين من المنافقين، فالله جعل أعداءً للأنبياء لحكمة؛ من أجل الابتلاء
والامتحان: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى
بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٣٧]، هذه هي الحكمة بأن الله جعل لكل نبي عدوًا شياطين
الإنس والجن، والشيطان هو: المارد العاصي، فكل من تمرد عن طاعة الله،
فإنه شيطان، سواء كان من الجن أو من الإنس، حتى الدواب المتمردة تسمى
شيطانًا، وهو من شاط الشيء، إذا اشتد، أو من شطن، إذا ابتعد^(١)، فالشيطان
يكون من عالم الجن، ويكون من عالم الإنس، وقوله تعالى: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ
إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ﴾ [الأنعام: ١١٢]، الزخرف في الأصل: الذهب، وزخرف
القول هو القول المموّه المزوّر^(٢)؛ لأجل أن يغر الناس، فالقول المزخرف هو
الباطل المغلف بشيء من الحق، وهذا من أعظم الفتنة؛ لأن الباطل لو كان
مكشوفًا، ما قبله أحد، لكن إذا غُطي بشيء من الحق، فإنه يقبله كثير من
الناس، وينخدعون بهذه الزخرفة، فهو باطل في صورة الحق: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ
مَا فَعَلُوهُ﴾، الله قادر على منعهم من ذلك، لكنه شاء أن يفعلوه؛ من أجل
الابتلاء والامتحان، وإذا كان هذا مع الأنبياء، فكيف بغيرهم من الدعاة إلى

(١) انظر: العين (٢٣٧/٦)، وتهذيب اللغة (٢١٤/١١)، والصحاح (٢١٤٤/٥)، ومقاييس اللغة (١٨٤/٣).

(٢) انظر مادة (زخرف) في: العين (٣٣٨/٤)، وتهذيب اللغة (٢٧١/٧)، والصحاح (١٣٦٩/٤)، ولسان العرب (١٣٢/٩).

الله وعلماء التوحيد؟ فأتباع الأنبياء -أيضاً- يكون لهم أعداء من دعاة الباطل في كل زمان وفي كل مكان.

هذا مستمر في الخلق وجود دعاة الحق، وإلى جانبهم دعاة الباطل في كل زمان ومكان.

الأمر الثاني -وهو العجيب-: أن دعاة الباطل يكون عندهم علوم، وعندهم كتب، وعندهم حجج يجادلون بها أهل الحق؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ [غافر: ٨٣]؛ يعني: الكفار ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الحقائق البيّنة والعلم النافع، ﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾، الذي توارثوه عن أجدادهم وآبائهم، والذي هو عبارة عن كتبهم وعن حججهم التي توارثوها، وهذا واقع الآن، فكم في الساحة من كتب أهل الباطل -ككتب الجهمية، وكتب المعتزلة، وكتب الأشاعرة، وكتب الشيعة- كم في الساحة من كتب هؤلاء! وعندهم حجج مركبة ومزيفة، تغر الإنسان الذي ليس عنده تمكن من العلم، فعلم الكلام وعلم المنطق اعتمدوه، وجعلوه هو العلم الصحيح الذي يفيد اليقين.



إِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ، وَعَرَفْتَ أَنَّ الطَّرِيقَ إِلَى اللَّهِ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَعْدَاءٍ قَاعِدِينَ عَلَيْهِ - أَهْلٍ فَصَاحَةٍ، وَعِلْمٍ، وَحُجَجٍ -، فَالْوَاجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَعْلَمَ مِنْ دِينِ اللَّهِ مَا يَصِيرُ سِلَاحًا تُقَاتِلُ بِهِ هَؤُلَاءِ الشَّيَاطِينَ، الَّذِينَ قَالَ إِمَامُهُمْ وَمُقَدِّمُهُمْ لِرَبِّكَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَكُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١٦) ثُمَّ لَا يَنْتَهُمُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿[الأعراف: ١٦-١٧]، وَلَكِنْ إِنْ أَقْبَلْتَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَأَصْغَيْتَ إِلَى حُجَجِ اللَّهِ وَبَيِّنَاتِهِ، فَلَا تَخَفْ، وَلَا تَحْزَنْ: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، وَالْعَامِّيُّ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ يَغْلِبُ الْأَلْفَ مِنْ عُلَمَاءِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣]. فَجُنُدُ اللَّهِ تَعَالَى هُمُ الْغَالِبُونَ بِالْحُجَّةِ وَاللِّسَانِ؛ كَمَا هُمُ الْغَالِبُونَ بِالسِّيفِ وَالسِّنَانِ، وَإِنَّمَا الْخَوْفُ عَلَى الْمُوَحِّدِ الَّذِي يَسْلُكُ الطَّرِيقَ، وَلَيْسَ مَعَهُ سِلَاحٌ. وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا بِكِتَابِهِ الَّذِي جَعَلَهُ ﴿تَبَيَّنًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، فَلَا يَأْتِي صَاحِبُ بَاطِلٍ بِحُجَّةٍ، إِلَّا وَفِي الْقُرْآنِ مَا يَنْقُضُهَا، وَيُبَيِّنُ بُطْلَانَهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]، قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: «هَذِهِ الْآيَةُ عَامَّةٌ فِي كُلِّ حُجَّةٍ يَأْتِي بِهَا أَهْلُ الْبَاطِلِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» (١).

• الشرح •

قال رحمه الله: (إِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ، وَعَرَفْتَ أَنَّ الطَّرِيقَ إِلَى اللَّهِ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَعْدَاءٍ قَاعِدِينَ عَلَيْهِ، أَهْلٍ فَصَاحَةٍ، وَعِلْمٍ، وَحُجَجٍ، فَالْوَاجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَعْلَمَ

(١) انظر: تفسير الطبري (١٧/٤٤٧)، وزاد المسير (٣/٣٢٠) وابن كثير (٦/١٠٩)، ومنهاج السنة النبوية (٣/٤٠٣)، ومجموع الفتاوى (٤/١٠٦).

مِنْ دِينِ اللَّهِ مَا يَصِيرُ سِلَاحًا تُقَاتِلُ بِهِ هَؤُلَاءِ الشَّيَاطِينَ، الَّذِينَ قَالَ إِمَامُهُمْ
وَمُقَدِّمُهُمْ لِرَبِّكَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدْ نَلَّمْهُمْ صِرْطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١٦) ثُمَّ لَا تَنْبَهُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ
وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿[الأعراف: ١٦-١٧]﴾،
أما أدلة القرآن والسنة، فهي حجج ظنية بزعمهم، لا تفيد اليقين، وهذا من تمام
الفتنة والتزييف على الناس؛ لأن الواقع الصحيح هو العكس، وهو أن أدلة
القرآن تفيد اليقين، وأدلة المنطق والجدل تفيد الشك والحيرة والاضطراب؛
كما أقر بذلك كبارهم عند الموت^(١)، أو عند توبتهم ورجوعهم عن علم
الكلام^(٢).

إذا كان هؤلاء عندهم فصاحة، وعندهم حجج، وعندهم كتب،
فلا يليق بك أن تقابلهم وأنت أعزل، بل يجب عليك أن تتعلم من كتاب الله
ومن سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما تبطل به حجج هؤلاء، الذين قال إبليس

(١) مثل قول الجويني عند وفاته: (لَقَدْ خُضْتُ الْبَحْرَ الْخِصْمَ، وَتَرَكْتُ أَهْلَ الْإِسْلَامِ
وَعُلُومَهُمْ، وَخُضْتُ فِي الَّذِي نَهَوْنِي عَنْهُ، وَالْآنَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُنِي رَبِّي بِرَحْمَةٍ مِنْهُ فَأَلْوِي
لِفُلَانٍ، وَهَذَا أَنَا ذَا أُمُوتٍ عَلَى عَقِيدَةٍ أُمِّي). انظر: مجموع الفتاوى (٧٣/٤).

(٢) مثل قول الرازي: (لَقَدْ تَأَمَّلْتُ الطُّرُقَ الْكَلَامِيَّةَ وَالْمَتَاهِجَ الْفَلَسَفِيَّةَ فَمَا رَأَيْتَهَا تَشْفِي عَالِيًا
وَلَا تَرْوِي غَلِيلًا وَرَأَيْتُ أَقْرَبَ الطُّرُقِ طَرِيقَةَ الْقُرْآنِ: أَقْرَأُ فِي الْإِنْبَاتِ ﴿الرَّحْنُ عَلَى الْعَرْشِ
أَسْتَوَى﴾، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾، وَأَقْرَأُ فِي النَّفْيِ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ
شَيْءٌ﴾، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ ثُمَّ قَالَ: وَمَنْ جَرَّبَ مِثْلَ تَجَرُّبَتِي
عَرَفَ مِثْلَ مَعْرِفَتِي، وَكَانَ يَتَمَثَّلُ كَثِيرًا:

وَأَكْثَرُ سَعْيِ الْعَالَمِينَ ضَلَالٌ
وَعَايَةُ دُنْيَانَا أَذَى وَوَيْالٌ
سِوَى أَنْ جَمَعْنَا فِيهِ قِيلَ وَقَالُوا

نَهَايَةُ إِفْسَادِ الْعُقُولِ عَقَالٌ
وَأَزْوَاحُنَا فِي وَخْشَةٍ مِنْ جُسُومِنَا
وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طَوْلَ عُمرِنَا
انظر: مجموع الفتاوى (٧٣-٧٢/٤).

إمامهم ومقدمهم لربك عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾؛ أي: لبني آدم ﴿صِرْطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾؛ أي: الطريق الموصل إليك، ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾، تعهد الخبيث أنه سيحاول إضلال بني آدم، وكذلك أتباعه من شياطين الإنس من أصحاب الكتب الضالة والأفكار المنحرفة يقومون بعمل إبليس في إضلال الناس.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَلَكِنْ إِنْ أَقْبَلْتَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَأَصْغَيْتَ إِلَى حُجَجِ اللَّهِ وَبَيِّنَاتِهِ، فَلَا تَخَفُ، وَلَا تَحْزَنُ) ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]؛ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَقَبِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾، فهم مهما كان عندهم من القوة الكلامية والجدال والبراعة في المنطق والفصاحة، إلا أنهم ليسوا على حق، وأنت على حق ما دمت متمسكًا بالكتاب والسنة، وفهمت الكتاب والسنة، فاطمئن؛ فإنهم لن يضروك أبدًا؛ ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾، لكن هذا يحتاج إلى الرجوع إلى الكتاب والسنة، فإنك بذلك لا تخاف مهما كان معهم من الحجج والكتب؛ لأنها سراب؛ كما قال الشاعر^(١):

حُجَجٌ تَهَافَتْ كَالزُّجَاجِ تَخَالَهَا حَقًّا وَكُلُّ كَاسِرٍ مَخْسُورٌ

فالسراب يزول، كذلك هذه الحجج إذا طلعت عليها شمس القرآن وبيانات القرآن، زال هذا الضباب الذي معهم، وهذه سنة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨]، ﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَ الْغُيُوبِ﴾ [سبأ: ٤٨]، قذائف الحق تدمر الباطل مهما كان.

(١) ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ عن الإمام الخطابي. انظر: مجموع الفتاوى (٢٨/٤)، وبيان تلبس الجهمية (٢/٢٥٣)، والصواعق المرسلة (٤/١٢٧٧).

قال رَحْمَةُ اللَّهِ: (وَالْعَامِيُّ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ يَغْلِبُ أَلْفَ مِنْ عُلَمَاءِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣])، هذا من العجائب أن العامي غير المتعلم من الموحدين يغلب ألفاً من علماء المشركين، ذلك لأن العامي عنده الفطرة السليمة، التي لم تتلوث بالشكوك والأوهام وقواعد المنطق وعلم الكلام، أما العالم المشرك، فليس عنده فطرة سليمة، ولا علم صحيح، وصاحب الفطرة السليمة يتغلب على الذي ليس عنده فطرة ولا علم؛ لأن علمه جهل.

إذا فالناس ثلاثة أقسام:

القسم الأول: من عنده علم صحيح وفطرة سليمة، وهذا أعلى الطبقات، وهذا هو الذي أقبل على ربه، وأصغى إلى حججه وبيّناته، فصار عنده علم صحيح وفطرة سليمة.

القسم الثاني: من ليس عنده علم، لكن عنده فطرة سليمة، وهو العامي من الموحدين.

القسم الثالث: من ليس عنده فطرة سليمة، ولا علم صحيح، وإنما عنده سراب لا حقيقة له، فهذا يُهزم أمام العامي، فكيف أمام العالم الذي عنده علم صحيح وفطرة سليمة؟ فهذا مما يدلّك على أن تعلّم العلم النافع يكون سلاحاً للمؤمن أمام أعداء الله ورسوله.

قال رَحْمَةُ اللَّهِ: (فَجُنْدُ اللَّهِ تَعَالَى هُمُ الْغَالِبُونَ بِالْحُجَّةِ وَاللِّسَانِ؛ كَمَا هُمُ الْغَالِبُونَ بِالسِّيفِ وَالسَّانِ)، قال تعالى: ﴿وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣]، أضاف الجند إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وجند الله هم المؤمنون، يقال

لهم: جند الله، ويقال لهم: حزب الله؛ كما في قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

فهم حزب الله وجند الله، والجند جمع جندي، وهو المقاتل والمدافع عن دين الله، أضافهم إلى نفسه تشریفاً لهم، وجعل لهم الغلبة بالحجة والسلاح، جند الله هم الغالبون بالحجة واللسان؛ يعني: بالعلم والمعرفة ومجادلة أهل الباطل، فما تقابل أهل حق وأهل باطل في خصومة، إلا تغلب أهل الحق على أهل الباطل في الخصومات والمناظرات دائماً وأبداً. فهم الغالبون بالحجة مع المبطلين؛ كما أنهم الغالبون بالسيف والسنان في المعارك^(١)، إذا تقابل الجندان -المسلمون والكفار-، فإنه ينتصر المسلمون على الكفار، إذا توفرت شروط النصر فيهم؛ بأن توكلوا على الله، واعتصموا بالله، وأطاعوا الله ورسوله، فإن حصل فيهم خلل، لحقت بهم الهزيمة؛ كما حصل للصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في وقعة أحد، لما عصوا أمر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونزلوا من الجبل الذي قال لهم: «إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطِفُنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ، هَذَا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا الْقَوْمَ وَأَوْطَأْنَا هُمْ، فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ»^(٢)، لا تنزلوا منه، سواء انتصرنا أو هُزِمْنَا، فلما خالفوا، ونزلوا من الجبل، حلت الهزيمة بالمسلمين^(٣).

(١) انظر: الجواب الصحيح (٥/ ٩٢)، ومجموع الفتاوى (١٨/ ٢٩٩-٣٠٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٣٩، ٤٠٤٣) عن البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) انظر أخبار غزوة أحد في: سيرة ابن إسحاق (ص ٣٢٢)، وسيرة ابن هشام (٢/ ٦٠)، ودلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٢٠١)، والروض الأنف (٥/ ٢٩٦)، والبداية والنهاية (٥/ ٣٣٧)، والسيرة النبوية لابن كثير (٣/ ١٨).

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَإِنَّمَا الْخَوْفُ عَلَى الْمُوَحِّدِ الَّذِي يَسْلُكُ الطَّرِيقَ وَلَيْسَ مَعَهُ سِلَاحٌ)، هذا هو الواقع، فالموحد الذي يسلك الطريق، ويواجه الكفار، ويقول: (أنا أدعو إلى الله)، وليس عنده علم، لو يقف أمامه واحد من عوامهم، ويلقي عليه شبهة، ما استطاع الجواب. فهذا مما يُوجب على طلبة العلم وعلى الدعاة إلى الله خصوصًا أن يتفقهوا في دين الله، وأن يتعلموا حجج الله وبراهينه، وأن يطلعوا على ما عند الخصوم والكفار والمنافقين من الباطل؛ من أجل أن يدحضوه، ويكونوا على معرفة به.

والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما أرسل معاذًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى اليمن، قال له: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ»^(١)؛ من أجل أن يستعد؛ لأن الذين أمامه أهل كتاب وأهل علم، وعندهم حجج، وعندهم شبهات، وعندهم تلبيس، فلا بد أن يكون معاذ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ على استعداد؛ من أجل أن يقوم بالدعوة، ويرد الباطل، ثم قال له: «فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، فهذا مما يؤكد على الموحدين عمومًا، وعلى طلبة العلم خصوصًا، وعلى الدعاة إلى الله

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٥، ١٤٩٦، ٢٤٤٨، ٤٣٤٧، ٧٣٧١، ٧٣٧٢)، ومسلم (١٩) عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ قَالَ: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ أَفْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ أَفْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَرُدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ».

بصفة أخص أن يتعلموا ما يدفعون به الباطل، وينصرون به الحق، وإلا فإنهم سينهزمون أمام أي شبهة تعرض لهم.

والمشكلة: إذا عجز الداعية إلى الله أن يُجيب على شبه الملبس أمام الناس، أو أجابه بجهل، وهذا أشد، ولا يتعارض هذا مع قول الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: (وَالْعَامِّيُّ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ يَغْلِبُ الْأَلْفَ مِنْ عُلَمَاءِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِنْ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصفات: ١٧٣])؛ لأن العامي الموحد إن كان كذلك، فعليه الخوف من شرهم، وأخذ الحذر منهم بتعلم العلم النافع.

وقد استشكل بعض الإخوان هذه العبارة، وهي قول الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: (وَالْعَامِّيُّ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ يَغْلِبُ الْأَلْفَ مِنْ عُلَمَاءِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ)، مع قوله: (وَلِئِمَّا الْخَوْفُ عَلَى الْمُوَحِّدِ الَّذِي يَسْلُكُ الطَّرِيقَ وَلَيْسَ مَعَهُ سِلَاحٌ)، والجواب عن هذا الإشكال: أن الشيخ رَحِمَهُ اللهُ يقصد أن العامي عنده فطرة سليمة، يستنكر بها الباطل، أما علماء الضلال، ففطرتهم فاسدة، وحججهم واهية، فالعامي يغلبهم بالفطرة السليمة من حيث الجملة، لا من حيث التفاصيل، فالعامي الموحد أحسن حالاً من علماء الكلام والمنطق؛ فكتاب الله ما ترك شيئاً نحتاج إليه من أمور ديننا، إلا وبيّنه لنا، لكن يحتاج منا إلى تفقه وتعلم، ولو كان عندك سلاح، ولكن لا تعرف تشغيله، فإنه لا يدفع عنك العدو، وكذلك القرآن لا ينفع إذا كان مهجوراً، وكان الإقبال على غيره من العلوم.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا بِكِتَابِهِ الَّذِي جَعَلَهُ ﴿بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩])، فَلَا يَأْتِي صَاحِبُ بَاطِلٍ بِحُجَّةٍ إِلَّا وَفِي الْقُرْآنِ مَا يَنْقُضُهَا، وَيُبَيِّنُ بُطْلَانَهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا

جَنَّاتِكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿ [الفرقان: ٣٣]، قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: «هَذِهِ الْآيَةُ عَامَّةٌ فِي كُلِّ حُجَّةٍ يَأْتِي بِهَا أَهْلُ الْبَاطِلِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»، هذه قاعدة معروفة؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا يقول عن القرآن: ﴿يَتَيْنَا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾، ويقول: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾، فلا يوجد شبهة في الدنيا أو باطل في الدنيا يُدلي به كافر أو مُلحد، إلا وفي القرآن ما يرد عليه، لكن لا يتبين هذا إلا بمعرفة القرآن، والتفقه فيه، ودراسته حق الدراسة؛ حتى يعرف ما فيه من الكنوز، وما فيه من السلاح، وما فيه من الذخيرة، التي تقاوم بها أعداءنا، فلنقبل على كتاب الله حفظاً، وتفهماً، وتلاوة، وتدبراً، وعملاً؛ حتى نكون مسلحين بهذا السلاح. أما مجرد وجود القرآن عندنا، من غير أن نعتني به وندرسه، فلا يكفي، وأهل الكتاب ضلوا وكفروا، وعندهم التوراة والإنجيل، لما تركوا تعلمهما والعمل بهما.

لكن لا بد من دراسة القرآن على ضوء السنة النبوية وتفسير السلف الصالح، لا على ضوء الدراسات المعاصرة المبنية على التخرص والجهل، أو ما يسمونه بالإعجاز العلمي.

فليس هذا خاصاً بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأهل زمانه مع القرآن، بل هذا عام لكل أُمته، إلى أن تقوم الساعة، لكن يحتاج إلى عناية بالقرآن ودراسة للقرآن كما ينبغي؛ لأن فيه بيان الحق والرد على أهل الباطل.



وَأَنَا أَذْكُرُ لَكَ أَشْيَاءَ مِمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ جَوَابًا لِكَلَامِ احْتِجَّ بِهِ الْمُشْرِكُونَ فِي زَمَانِنَا عَلَيْنَا، فنَقُولُ: جَوَابُ أَهْلِ الْبَاطِلِ مِنْ طَرِيقَيْنِ: مُجْمَلٌ، وَمُفَصَّلٌ.

أَمَّا الْمُجْمَلُ: فَهُوَ الْأَمْرُ الْعَظِيمُ، وَالْفَائِدَةُ الْكَبِيرَةُ لِمَنْ عَقَلَهَا، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ٧]، وَقَدْ صَحَّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ»^(١).

الشرح

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَأَنَا أَذْكُرُ لَكَ أَشْيَاءَ مِمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ جَوَابًا لِكَلَامِ احْتِجَّ بِهِ الْمُشْرِكُونَ فِي زَمَانِنَا عَلَيْنَا)، لما ذكر لك هذه القاعدة العظيمة، وهو أنه لا يأتي مبطل بشبهته، إلا وفي القرآن ما يبين بطلانها، وأن ذلك مستمر

(١) أخرجه البخاري (٤٥٤٧)، ومسلم (٢٦٦٥) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: تَلَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ».

إلى يوم القيامة، دخل في التمثيل من الواقع الذي جرى للشيخ رحمه الله في وقته مع خصومه. ومن هنا إلى آخر الكتاب كله كشف شبهات يعترضون بها على الشيخ، وهو يُجيبهم عنها من كتاب الله ومن سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ويدحض حججهم، وبذلك نصره الله عليهم، وأبطل كيدهم.

قال رحمه الله: (فَقُولُ: جَوَابُ أَهْلِ الْبَاطِلِ مِنْ طَرِيقَيْنِ: مُجْمَلٌ، وَمُفَصَّلٌ)، المَجْمَلُ: هو القاعدة العامة في جواب أهل الباطل على اختلاف أصنافهم، وفي أي زمان ومكان^(١).

والمفصل: هو الرد على كل شبهة على حدة.

فإذا عرفت المَجْمَلُ والمفصل في رد الشبهات، صار عندك سلاح لمنازلة المشركين والمبطلين.

قال رحمه الله: (أَمَّا الْمُجْمَلُ: فَهُوَ الْأَمْرُ الْعَظِيمُ، وَالْفَائِدَةُ الْكَبِيرَةُ لِمَنْ عَقَلَهَا، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَهْلُ الْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٧٧])، هذا هو الرد المَجْمَلُ على الشبهات، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾؛ يعني: القرآن ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾، المحكم: هو الذي لا يحتاج في بيانه إلى غيره، فالقرآن منه آيات على هذا الشكل ﴿مُحْكَمَاتٌ﴾؛ يعني: بينات واضحات في

(١) انظر: روضة الناظر (ص ١٨٠)، والمختصر في أصول الفقه للبعلي (ص ١٥٨)، ومختصر التحرير لابن النجار (ص ١٦٧)، وإرشاد الفحول للشوكاني (١/ ٢٨٣).

معانيها، لا تحتاج إلى غيرها، ﴿هُنَّ أُمَّ الْكِتَابِ﴾، أم الشيء هو الأصل الذي يرجع إليه^(١)، فالآيات المحكمات هن الأصل الذي يرجع إليه، ﴿وَأُخْرُ مُتَشَبِهَةٌ﴾، المتشابه هو الذي يحتاج لبيان معانيه إلى غيره، فيرد إلى المحكم، ومن المتشابه المحتمل لمعان متعددة، ويحتاج إلى غيره في بيان المراد منه، ومنه المطلق، ومنه المنسوخ^(٢).

وقد ذكر تعالى موقف الناس من هذين القسمين - المحكم والمتشابه -، فقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ﴾؛ يأخذون الآيات غير الواضحة، أو الآيات المحتملة، ويستدلون بها على ما يريدون، مع أنها محتملة ليست نصاً فيما يقولون، لكن هم يريدون التلبس على الناس، يقولون: (نحن استدللنا بالقرآن)، فيأخذون الآيات التي لا يتضح معناها بنفسها، أو الآيات المحتملة لعدة معان، فيستدلون بها على ما يريدون؛ ﴿ابْتِغَاءَ الْقِتْنَةِ﴾؛ أي: التشكيك والتضليل، أو ﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾، التأويل يطلق على معنيين؛ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في رسالته التدمرية^(٣).

المعنى الأول: أن المراد به التفسير، وهذا هو المعروف عند المتقدمين، ولذلك تجد ابن جرير الطبري^(٤) في تفسيره يقول: (القول في تأويل قوله

(١) انظر: تفسير الطبري (٣/ ١٧٠)، وتفسير ابن كثير (١/ ٣٤٥).

(٢) انظر في معنى المحكم والمتشابه: تفسير الطبري (٥/ ١٩٢ - ٢٠١)، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج (١/ ٣٧٦ - ٣٧٧)، وزاد المسير (١/ ٢٥٨ - ٢٦٠)، والقرطبي (٤/ ٩ - ١١)، وابن كثير (٢/ ٦ - ٧).

(٣) انظر: التدمرية (ص ٩١، وما بعدها).

(٤) محمد بن جرير بن يزيد أبو جعفر الطبري، الإمام العلم المجتهد، أحد أئمة العلماء يحكم بقوله ويرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله، وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من =

تعالى)؛ أي: في تفسيره، فإن كان هذا هو المقصود في الآية: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾، فإنه يعطف الراسخون في العلم على لفظ الجلالة هكذا: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾؛ يعني: والراسخون في العلم يعلمون تأويله - وهو التفسير -، وذلك برده إلى المحكم، الذي يبين المراد منه.

فتفسير القرآن على هذا الوجه لا يعلمه إلا الله وأهل العلم المختصون، وأمّا العوام والجهال، فلا يعلمون تفسيره، وأهل الزيغ يأخذون المتشابه، ولا يردونه إلى المحكم، ويقطعون بعض القرآن عن بعض، فيأخذون بعض الآيات، ويتركون البعض الآخر.

أما المعنى الثاني للتأويل: فهو الحقيقة التي يؤول إليها الشيء، وما يصير إليه في المستقبل^(١)؛ مثل: حقائق ما في الجنة من أعناب ونخيل وفواكه، ولبن وخمر وعسل، وأشياء لا يعلم حقائقها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنها من علم الغيب. وكذلك كيفية أسماء الله وصفاته، لا يعلمها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالتأويل على هذا المعنى: ما يؤول إليه الشيء في المستقبل، فإذا أريد هذا المعنى، تَعَيَّنَ الوقفُ في الآية على لفظ الجلالة؛ لأنه لا يعلم تأويله على هذا الوجه إلا هو سبحانه^(٢).

= أهل عصره، وكان ثقة صادقاً حافظاً رأساً في التفسير إماماً في الفقه والإجماع والاختلاف علامة في التاريخ وأيام الناس عارفاً بالقراءات وباللغة وغير ذلك، توفي سنة ٣١٠ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (٢٦٧/١٤)، وطبقات الشافعية (١٠٠/٢)، وطبقات السبكي (١٢٠/٣).
(١) انظر: مادة: (أ و ل) في لسان العرب (٣٢/١١)، ومختار الصحاح (ص ٢٠)، والقاموس المحيط (١٢٤٤).

(٢) انظر معاني التأويل في: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٨ - ٦٩)، (١٣/٢٨٨ - ٢٩٤)، ودرء التعارض له (١/٢٠١ - ٢٠٨)، والصفدية (١/٢٩١).

قال رحمه الله: (وَقَدْ صَحَّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْمُتَشَابِهَ وَيَتْرُكُونَ الْمُحْكَمَ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَى اللَّهُ فِي كِتَابِهِ فَاحْذَرُوهُمْ»)، صح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم أنه قال: «إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ؛ أَي: من القرآن والسنة، ويأخذون بالنصوص المجملة، ويتركون النصوص المفصلة، «فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَى اللَّهُ» في هذه الآية: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾، «فاحذروهم»؛ أي: احذروا أصحاب هذه الطريقة؛ لا يلبسوا عليكم أمر دينكم.

فهذا فيه التحذير من علماء الضلال ومن المبتدعة؛ لئلا يلبسوا علينا أمر ديننا، فهؤلاء من الذين ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٧].



مِثَال ذَلِكَ: إِذَا قَالَ لَكَ بَعْضُ الْمُشْرِكِينَ: ﴿أَلَا إِنَّا أَوْلِيَاءُ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، أَوْ إِنَّ الشَّفَاعَةَ حَقٌّ، أَوْ إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَهُمْ جَاهٌ عِنْدَ اللَّهِ، أَوْ ذَكَرَ كَلَامًا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَدِلُّ بِهِ عَلَى شَيْءٍ مِنْ بَاطِلِهِ، وَأَنْتَ لَا تَفْهَمُ مَعْنَى الْكَلَامِ الَّذِي ذَكَرَهُ، فَجَاوِبُهُ بِقَوْلِكَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَ فِي كِتَابِهِ أَنَّ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَنْغٌ يَتْرُكُونَ الْمُحْكَمَ، وَيَتَّبِعُونَ الْمُتَشَابِهَ.

وَمَا ذَكَرْتُهُ لَكَ مِنْ أَنَّ اللَّهَ ذَكَرَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ يُقِرُّونَ بِالرُّبُوبِيَّةِ، وَأَنَّهُ كَفَرَهُمْ بِتَعَلُّقِهِمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، وَالْأَنْبِيَاءِ، وَالْأَوْلِيَاءِ مَعَ قَوْلِهِمْ: ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وَهَذَا أَمْرٌ مُحْكَمٌ بَيِّنٌ، لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يُغَيِّرَ مَعْنَاهُ، وَمَا ذَكَرْتَهُ لِي - أَيُّهَا الْمُشْرِكُ - مِنَ الْقُرْآنِ، أَوْ كَلَامِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا أَعْرِفُ مَعْنَاهُ، وَلَكِنْ أَقْطَعُ أَنَّ كَلَامَ اللَّهِ لَا يَتَنَاقَضُ، وَأَنَّ كَلَامَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يُخَالِفُ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى. وَهَذَا جَوَابٌ جَيِّدٌ سَدِيدٌ، وَلَكِنْ لَا يَفْهَمُهُ إِلَّا مَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ تَعَالَى، فَلَا تَسْتَهِنْ بِهِ؛ فَإِنَّهُ - كَمَا قَالَ تَعَالَى -: ﴿وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا ذُرْحَقٌ عَظِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٥].

الشرح

أي: إذا قال لك واحد من علماء المشركين، الذين يتعلقون بالأولياء، ويطلبون منهم المدد، ويستغيثون بهم؛ كما هو الحال والواقع الآن عند عبادة القبور، ويقولون: (إن الله جلَّ وعلا يقول: ﴿أَلَا إِنَّا أَوْلِيَاءُ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، وهؤلاء أولياء، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر أن

الصالحين يشفعون، وأن الأولياء يشفعون، والرسل يشفعون)، فالجواب: أن الشفاعة حق، لا شك في ذلك، ولكنها - كما ذكر الله - لا بد لها من شرطين:

١- الإذن للشافع أن يشفع.

٢- وأن يكون المشفوع فيه من أهل التوحيد.

ولا شك أن الله سبحانه وعد الأولياء أنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، لكن من الأولياء؟ هل الأولياء طائفة مخصوصة من الناس عليهم عمام ولباس خاص؟ أو الأولياء الذين بني على قبورهم قباب؟ ليس كذلك؛ لأن الله سبحانه بيّنهم بعد هذه الآية مباشرة، حيث قال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٣]، فكل مؤمن تقي فهو ولي لله، ليست الولاية خاصة بطائفة معينة، أو أشخاص معينين؛ لهم لباس خاص، ولهم سمات خاصة، أو على قبورهم قباب وزخرفات؛ الأولياء كل مؤمن تقي، فإنه ولي الله بنص هذه الآية.

والولاية تختلف باختلاف الإيمان والتقوى؛ منهم من هو ولي كامل الولاية، ومنهم من هو ولي دون ذلك؛ بحسب إيمانه، وبحسب تقواه، فليست الولاية خاصة بما تزعمون من هؤلاء الأشخاص أو هؤلاء المقبورين، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «رُبَّ أَشْعَثَ، مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبْرَهُ»^(١)، فقد يكون الولي غير معروف، ولا له مكانة عند الناس. هذا من ناحية، ومن الناحية الثانية لو ثبت أنه ولي لله عَزَّجَلَّ، فإن هذا لا يعطيه شيئاً من الربوبية، ولا شيئاً من حق الله؛ لأنه عبد الله محتاج إلى ربه عَزَّجَلَّ، ولا يملك من الأمر

(١) أخرجه مسلم (١٣٨) (٢٦٢٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

شيئاً، لا يخلق، ولا يرزق، فليس المعنى أنه إذا كان ولياً أننا نتعلق به، وننزل حاجاتنا به، ونستغيث به، ونطلب منه؛ لأن الله قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]، لا من الأولياء، ولا غيرهم؛ فالله لا يرضى بهذا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فليس معنى قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] أنهم يملكون شيئاً من الربوبية، وأنهم ينفعون ويضرون، وأنهم يعطون الشفاعة، وأنهم وأنهم... كما يزعم القبوريون، فمن تعلق بالأولياء، وطلب منهم الشفاعة وهم أموات، أو طلب منهم الإغاثة وهم أموات، أو طلب منهم قضاء الحاجات وهم في قبورهم، فإنه مثل المشركين الأولين، الذين قال الله فيهم: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، هم يقولون: (نحن لا نعتقد أنهم يخلقون ويرزقون، وإنما من أجل أن نجعلهم وسائط بيننا وبين الله؛ لأنهم أولياء، ونحن مقصرون، ونحن مذنبون، فهؤلاء بصلاحهم وجاههم ومكانتهم عند الله يشفعون لنا)، والله رد عليهم، فقال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، فسمى هذا شركاً، وقال في آية أخرى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، يريدون الوساطة فقط عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإلا فإنهم معترفون أن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت، فيعترفون بتوحيد الربوبية، تماماً كما ذكر الله عنهم، وإنما قصدوا بفعلهم هذا وساطة هؤلاء الصالحين عند الله، فندروا لهم، وذبحوا لهم،

واستغاثوا بهم: (يا سيدي! اشفع لي عند الله، افعل كذا)، هذا الذي يقولونه عند القبور هل هذا يختلف عما قاله المشركون من قبل، الذين رد عليهم جَلَّ وَعَلَا بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣]؟ حكم عليهم بالكذب، وحكم عليهم بالكفر، فعملهم هذا كفر وكذب. وفي سورة يونس نزه نفسه عن ذلك، فقال: ﴿سُبْحَنَهُ، وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨]، سماه شركا.

فالأولياء عباد صالحون، لهم قدرهم، ونحترمهم، ونحبهم، ونقتدي بهم في الأعمال الصالحة، لكن ليس لهم شركة مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، إنما هم مثلنا محتاجون إلى الله عَزَّجَلَّ، فقراء إلى الله عَزَّجَلَّ: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾، هذا عام، ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، كل الخلق فقراء إلى الله عَزَّجَلَّ بما فيهم الأنبياء والرسل، بما فيهم الملائكة عَلَيْهِمُ السَّلَام، كلهم فقراء إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهذا مما يزيل اللبس؛ لأن هؤلاء يأخذون بعض القرآن، ويستدلون به، ويتركون البعض الآخر؛ يأخذون الآية التي تمدح الأولياء، وتثني عليهم، ويتركون الآية الأخرى، التي تبين أنهم لا يُعْبَدُونَ من دون الله عَزَّجَلَّ، وَأَنَّ مَنْ طَلَبَ مِنْهُمْ شَيْئًا وَهُمْ أَمْوَاتٌ، فإنه مشرك كافر، يتركون هذه الآيات، فهذا من الزيغ الذي ذكره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فلتكن عندك هذه القاعدة؛ أن الإنسان مهما بلغ من الصلاح والكرامة والمنزلة عند الله، فإنه ليس له من الربوبية شيء، وإنه لا يُدْعَى مع الله، وإنه لا يكون له شيء من العبادة، وهو لا يرضى بذلك، فالأولياء والصالحون على الحقيقة لا يرضون بذلك، وينهون عنه أشد النهي، إنما يرضى بذلك

الطواغيت، الذين يدعون الناس إلى عبادة أنفسهم، أما أولياء الله، فحاشاهم من هذا! لا يرضون به، وإنما يرضى به أولياء الشيطان. هذا معنى قول الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: (وَلَكِنْ أَقْطَعُ أَنَّ كَلَامَ اللهِ لَا يَتَنَاقِضُ، وَأَنَّ كَلَامَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يُخَالِفُ كَلَامَ اللهِ تَعَالَى. وَهَذَا جَوَابٌ جَيِّدٌ سَدِيدٌ، وَلَكِنْ لَا يَفْهَمُهُ إِلَّا مَنْ وَفَّقَهُ اللهُ تَعَالَى، فَلَا تَسْتَهِنْ بِهِ؛ فَإِنَّهُ - كَمَا قَالَ تَعَالَى -: ﴿وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥])، فيجب رد النصوص بعضها إلى بعض، وتفسير بعضها ببعض؛ حتى يتضح المطلوب، وهذا - كما قال الشيخ - جواب سديد، تجب العناية به؛ لأنه مبني على كتاب الله، فمن وفق له، فهو ذو حظ عظيم.



وَأَمَّا الْجَوَابُ الْمَفْصَلُ: فَإِنَّ أَعْدَاءَ اللَّهِ لَهُمْ اغْتِرَاضَاتٌ كَثِيرَةٌ عَلَى دِينِ الرُّسُلِ، يَصُدُّونَ بِهَا النَّاسَ عَنْهُ، مِنْهَا قَوْلُهُمْ: نَحْنُ لَا نُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا، بَلْ نَشْهَدُ أَنَّهُ لَا يَخْلُقُ، وَلَا يَرْزُقُ، وَلَا يَنْفَعُ، وَلَا يَضُرُّ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا، فَضَلًّا عَنْ عَبْدِ الْقَادِرِ^(١)، أَوْ غَيْرِهِ، وَلَكِنْ أَنَا مُذْنِبٌ، وَالصَّالِحُونَ لَهُمْ جَاهٌ عِنْدَ اللَّهِ، وَأَطْلُبُ مِنَ اللَّهِ بِهِمْ. فَجَاوِبُهُ بِمَا تَقَدَّمَ، وَهُوَ أَنَّ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُقَرُّونَ بِمَا ذَكَرْتُ لِي أَيْهَا الْمُبْطِلُ، وَمُقَرُّونَ أَنَّ أَوْتَانَهُمْ لَا تُدَبَّرُ شَيْئًا، وَإِنَّمَا أَرَادُوا بِمَنْ قَصَدُوا الْجَاهَ وَالشَّفَاعَةَ، وَاقْرَأْ عَلَيْهِ مَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ، وَوَضَّحْهُ.

فَإِنْ قَالَ: إِنَّ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ نَزَلَتْ فِي مَنْ يَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، كَيْفَ تَجْعَلُونَ الصَّالِحِينَ مِثْلَ الْأَصْنَامِ؟ أَمْ كَيْفَ تَجْعَلُونَ الْأَنْبِيَاءَ أَصْنَامًا؟ فَجَاوِبُهُ بِمَا تَقَدَّمَ، فَإِنَّهُ إِذَا أَقَرَّ أَنَّ الْكُفَّارَ يَشْهَدُونَ بِالرُّبُوبِيَّةِ كُلِّهَا لِلَّهِ، وَأَنَّهُمْ مَا أَرَادُوا مِنْ قَصْدُوا إِلَّا الشَّفَاعَةَ. وَلَكِنْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَ فِعْلِهِمْ وَفِعْلِهِ بِمَا ذَكَرَ، فَادْكُرْ لَهُ أَنَّ

(١) هو أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح عبد الله الجيلي الحنبلي شيخ بغداد، نسبة إلى جيل، وهي بلاد متفرقة من وراء طبرستان، ويقال لها أيضا: جيلان وكيلان، مولده بها سنة إحدى وسبعين وأربعمائة، وهو من سادات مشايخ الصوفية، وتُنسب إليه الطريقة القادرية من طرق الصوفية المعروفة المشهورة، قال عنه ابن كثير: (كان فيه تزهّد كثير وله أحوال صالحة ومكاشفات، ولأتباعه وأصحابه فيه مقالات، ويذكرون عنه أقوالاً وأفعالاً ومكاشفات أكثرها مغالاة، وقد كان صالحاً ورعاً) اهـ. وقال الذهبي في آخر ترجمته: (وفي الجملة الشيخ عبد القادر كبير الشأن، وعليه مأخذ في بعض أقواله ودعاويه -والله الموعود- وبعض ذلك مكذوب عليه) اهـ. من مصنفاته: (الغنية لطالب طريق الحق)، و(فتوح الغيب)، و(الفيوضات الربانية)، توفي سنة إحدى وستين وخمسمائة. انظر: الأنساب (١٤٦/٢)، وسير أعلام النبلاء (٤٣٩/٢٠)، والعبر (١٧٥/٤)، والبداية والنهاية (٢٥٢/١٢)، وشذرات الذهب (١٩٨/٤).

الْكُفَّارَ مِنْهُمْ مَنْ يَدْعُو الْأَصْنَامَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَدْعُو الْأَوْلِيَاءَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧]، وَيَدْعُونَ عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَاكُلَانِ الطَّعَامَ أَنْظِرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَفْ يَتُفَكُّونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٥-٧٦]. وَاذْكُرْ لَهُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿١٠١﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦].

فَقُلْ لَهُ: عَرَفْتُ أَنَّ اللَّهَ كَفَّرَ مَنْ قَصَدَ الْأَصْنَامَ، وَكَفَّرَ أَيُّضًا مَنْ قَصَدَ الصَّالِحِينَ، وَقَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فَإِنْ قَالَ: الْكُفَّارُ يُرِيدُونَ مِنْهُمْ، وَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ هُوَ النَّافِعُ الضَّارُّ الْمُدَبِّرُ، لَا أُرِيدُ إِلَّا مِنْهُ، وَالصَّالِحُونَ لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ، وَلَكِنْ أَقْصِدُهُمْ أَرْجُو مِنَ اللَّهِ شَفَاعَتَهُمْ.

فَالْجَوَابُ: أَنَّ هَذَا قَوْلُ الْكُفَّارِ سَوَاءً بِسَوَاءٍ، فَاقْرَأْ عَلَيْهِ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ

وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعْنَاهُمْ عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْتَبِهُونَ اللَّهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ، وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾

[يونس: ١٨].

وَاعْلَمَ أَنَّ هَذِهِ الشُّبَّةَ الثَّلَاثَ هِيَ أَكْبَرُ مَا عِنْدَهُمْ.

فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ اللَّهَ وَضَحَهَا فِي كِتَابِهِ، وَفَهِمْتَهَا فَهْمًا جَيِّدًا، فَمَا بَعْدَهَا أَيْسَرُ مِنْهَا.

• الشرح •

ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا المقطع ثلاث شبهات للمشركين، هي من أهم ما عندهم، فإذا عرفت الإجابة الصحيحة عنها، فما بعدها من الشبهات أيسر منها:

الشبهة الأولى: أنهم يقولون: (نحن نشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونعلم أنه لا ينفع ولا يضر إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يملك نفعًا ولا ضرًا، فضلًا عن عبد القادر -يعني: عبد القادر الجيلاني-، لكن هؤلاء لهم جاه عند الله، فنطلب من الله بهم -يعني: نجعلهم وسائط بيننا وبين الله-؛ لما لهم من الفضل).

فالجواب سهل جدًا من كتاب الله، بأن تقول: إن المشركين مع أصنامهم ما كانوا يعتقدون فيها أنها تخلق وترزق، وتنفع وتضر، وإنما اتخذوها وسائط بينهم وبين الله، وهذا واضح في قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا

لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾، نَزَّهَ نَفْسَهُ عَنْ فَعْلِهِمْ، وَسَمَاهُ شَرْكَاءَ، مَعَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: ﴿٢﴾ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ ﴿٣﴾، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ لَا يَنْفَعُونَ، وَلَا يَضُرُّونَ، وَإِنَّمَا قَصْدُهُمُ التَّعَلُّقُ بِالْجَاهِ فَقَطْ؛ فَالْآيَاتُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَشْرِكِينَ مُعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُ لَا يَخْلُقُ، وَلَا يَرْزُقُ، وَلَا يَدْبِرُ الْأُمُورَ، إِلَّا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَأَنَّ أَصْنَامَهُمْ وَمَعْبُودَاتِهِمْ لَا تَخْلُقُ، وَلَا تَرْزُقُ، وَلَا تَدْبِرُ مَعَ اللَّهِ، وَإِنَّمَا اتَّخَذُوهَا وَسَائِطَ. وَلَا فَرْقَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ.

وَإِذَا كُنْتَ مَذْنِبًا، فَلَمَّا إِذَا لَا تَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، وَتَطْلُبُ مِنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ جَلَّ وَعَلَّ أَمْرَكَ بِالْإِسْتِغْفَارِ، وَوَعْدَكَ بِالتَّوْبَةِ، وَأَنْ يَقْبَلَ مِنْكَ، وَيَغْفِرَ ذُنُوبَكَ، وَلَمْ يَقُلْ: إِذَا أَذْنَبْتُ، فَادْهَبْ إِلَى قَبْرِ الْوَلِيِّ الْفُلَانِي، أَوِ الْعَبْدِ الصَّالِحِ الْفُلَانِي، وَتَوَسَّلْ بِهِ، وَاجْعَلْهُ وَاسِطَةً بَيْنِي وَبَيْنَكَ؟

وَتَقُولُ -أَيْضًا-: هَؤُلَاءِ إِذَا كَانَ لَهُمْ جَاهٌ عِنْدَ اللَّهِ، فَإِنْ جَاهَهُمْ لَهُمْ، وَصَلَاحُهُمْ لَهُمْ، وَأَنْتَ لَيْسَ لَكَ إِلَّا عَمَلُكَ، وَصَلَاحُ الصَّالِحِينَ لَهُمْ، وَجَاهُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ لَهُمْ، مَا عِلَاقَتُكَ بِعَمَلِ فُلَانٍ وَصَلَاحِ فُلَانٍ؟ كُلُّ لَهُ عَمَلُهُ: ﴿١﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ [البقرة: ١٣٤]، ﴿٣﴾ وَلَا تُحْزَنُوا إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤﴾ [يس: ٥٤]، فَجَاهُهُمْ وَصَلَاحُهُمْ لَهُمْ، وَلَا يَنْفَعُكَ إِذَا كُنْتَ مَذْنِبًا، حَتَّى وَالِدُكَ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَيْكَ وَوَلَدُكَ لَا يَسْتَطِيعُ -وَلَوْ كَانَ مِنْ أَصْلَحِ النَّاسِ- أَنْ يَنْفَعَكَ ﴿٥﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿٦﴾ [الأنفطار: ١٩]، ﴿٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٨﴾ [المائدة: ٣٨]، ﴿٩﴾ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنِ وَالِدِهِ

شَيْئًا ﴿ لقمان: ٣٣ ﴾، ﴿ يَوْمَ يَقْرَأُ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿ ٣٤ ﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿ ٣٥ ﴾ وَصَاحِبِهِ وَبَنِيهِ ﴾ [عبس: ٣٤-٣٦].

الشبهة الثانية: إذا قرأت عليه قوله تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُوا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [يونس: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر: ٣]، وبيّنت له أن المشركين ما أرادوا ممن عبدوهم إلا الشفاعة، وقال لك: (هذه الآيات نزلت في الذين يعبدون الأصنام، وأنا لست أعبد الأصنام، وإنما أتوسل إليه بالصالحين فكيف تجعل الصالحين أصناماً؟!).

والجواب عن هذا واضح جداً، وهو أن الله ذكر أن المشركين منهم من يعبد الأصنام، ومنهم من يعبد الأولياء والصالحين، وسوى الله بينهم في الحكم، ولم يفرق بينهم، وأنت فرقت بينهم، في ظنك أن عبادة الأصنام لا تجوز، وأن عبادة الصالحين تجوز، إذا كانت بقصد التوسط، والدليل على هذا أن الله ذكر أنواعاً من المشركين، فمنهم من يعبد الصالحين، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿ ٤٠ ﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴾ [سبا: ٤٠-٤١]، في يوم القيامة الله جلّ وعلا يسأل الملائكة، وهو أعلم سبحانه وتعالى، لكن لأجل إبطال حجة هؤلاء: ﴿ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾، فدل على أن منهم من يعبد الملائكة، لكن الملائكة تترأّ من يوم القيامة، وتقول: نحن ما أمرناهم بذلك، ولا رضينا بذلك؛ ﴿ سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ

بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ؛ يعني: الشياطين هي التي أمرتهم بعبادة الملائكة؛ لأن الملائكة لا تأمر إلا بعبادة الله، ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٩]، فدل على أن منهم من يعبد الملائكة، والملائكة أصلح الصالحين؛ كما قال تعالى فيهم: ﴿لَا يَسْقُونَهُ إِلَّا أَلْفَوْا وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧].

ومنهم من يعبد الأنبياء والصالحين كالسيح ابن مريم وأمه.

وإذا بطل التوسل بالملائكة والأنبياء ودعائهم من دون الله، بطل التوسل بغيرهم من الصالحين ودعائهم من دون الله؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣]؛ لأن الواجب إخلاص العبادة لله عَزَّوَجَلَّ بجميع أنواعها؛ من الدعاء، والذبح، والنذر، وغير ذلك، فمن ذبح لغير الله، ودعا لغير الله، كان مشركاً خارجاً من الدين.

الشبهة الثالثة: إذا سلم بأن الدعاء لغير الله شرك، ولكنه قال: (أنا لا أدعو النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا غيره، وهذا الذي أفعله ليس دعاءً، وإنما هو طلب لشفاعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهل تنكر شفاعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟)، فإنك حينئذٍ تدخل معه في خصومة أخرى وشبهة أخرى، وهي أنه سمي دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والاستغاثة به طلباً للشفاعة، ولم يُسمَّ دعاءً، ويقول: (إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُعطي الشفاعة، فأنا أطلب منه الشفاعة التي أعطيها).

فتقول له: أنا لا أنكر الشفاعة، وأقر أن شفاعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حق، وأنه شافع مشفع، أنا لا أنكر هذا، ولكن الشفاعة لا تطلب من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو ميت، وإنما تطلب من الله؛ لأن الشفاعة ملك لله عز وجل، قال الله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٤٤]، فجميع أنواع الشفاعة ملك لله، وما دامت ملكاً لله، فإنها لا تطلب إلا ممن يملكها، وهو الله سبحانه وتعالى، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يملك الشفاعة، ولا أحد يملك الشفاعة، إلا بإذن الله، وإنما هي ملك لله عز وجل، وأيضاً الشفاعة لا تنفع كل أحد، وإنما تنفع أهل التوحيد، وأنت لست من أهل التوحيد؛ لأنك تدعو غير الله.

فالشفاعة لها شرطان:

الشرط الأول: أن تطلب من الله سبحانه وتعالى، ولا تطلب من غيره.

الشرط الثاني: أن يكون المشفوع فيه من أهل التوحيد، لا من أهل الشرك والكفر. والدليل على الشرط الثاني قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وهو لا يرضى إلا عن أهل التوحيد، ودليل الشرط الأول قوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، لا الملائكة، ولا الرسل، ولا الأولياء، ولا الصالحون، لا أحد يشفع عند الله، إلا بعد أن يأذن الله: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦]، فلا تطلب الشفاعة من المخلوق الميت، وإنما تطلب الشفاعة من الله، فتقول: (اللهم شفّع فيّ نبيك)، لا تطلبها من الأموات.

وهذا الذي تقول: (إنه طلب للشفاعة)، هو الذي كفر الله به المشركين، فإن المشركين حينما لجؤوا إلى الأولياء والصالحين، وإلى الملائكة، وإلى الأنبياء يطلبون منهم الشفاعة، كفرهم الله بذلك، فقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْتَبِهُونَ إِنَّ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرَكُونَ﴾ [يونس: ١٨]، فهذا الذي تقوله هو الذي كفر الله به المشركين، وهو عبادة الأولياء والصالحين؛ طلباً لشفاعتهم.



فَإِنْ قَالَ: أَنَا لَا أَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ، وَهَذَا الْإِلْتِجَاءُ إِلَيْهِمْ وَدَعَاؤُهُمْ لَيْسَ بِعِبَادَةٍ. فَقُلْ لَهُ: أَنْتَ تُقَرُّ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْكَ إِخْلَاصَ الْعِبَادَةِ، وَهُوَ حَقُّهُ عَلَيْكَ. فَإِذَا قَالَ: نَعَمْ. فَقُلْ لَهُ: يَبْنِي لِي هَذَا الَّذِي فَرَضَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَهُوَ إِخْلَاصُ الْعِبَادَةِ، وَهُوَ حَقُّهُ عَلَيْكَ؛ فَإِنَّهُ لَا يَعْرِفُ الْعِبَادَةَ، وَلَا أَنْوَاعَهَا، فَيَبْنِيهَا لَهُ بِقَوْلِكَ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥].

فَإِذَا أَعْلَمْتَهُ بِهَذَا، فَقُلْ لَهُ: هَلْ هُوَ عِبَادَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى؟ فَلَا بُدَّ أَنْ يَقُولَ: نَعَمْ، وَالدُّعَاءُ مِنَ الْعِبَادَةِ. فَقُلْ لَهُ: إِذَا أَقَرَّرْتَ أَنَّهَا عِبَادَةٌ، وَدَعَوْتَ اللَّهَ لَيْلًا وَنَهَارًا، خَوْفًا وَطَمَعًا، ثُمَّ دَعَوْتَ فِي تِلْكَ الْحَاجَةِ نَبِيًّا، أَوْ غَيْرَهُ، هَلْ أَشْرَكْتَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ غَيْرَهُ؟ فَلَا بُدَّ أَنْ يَقُولَ: نَعَمْ.

فَقُلْ لَهُ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَحْسِرْ﴾ [الكوثر: ٢]، فَإِذَا أَطَعْتَ اللَّهَ، وَنَحَرْتَ لَهُ، هَلْ هَذِهِ عِبَادَةٌ؟ فَلَا بُدَّ أَنْ يَقُولَ: نَعَمْ. فَقُلْ لَهُ: إِذَا نَحَرْتَ لِمَخْلُوقٍ -نَبِيٍّ أَوْ جِنِّيٍّ أَوْ غَيْرِهِمَا-، هَلْ أَشْرَكْتَ فِي هَذِهِ الْعِبَادَةِ غَيْرَ اللَّهِ؟ فَلَا بُدَّ أَنْ يَقُولَ: نَعَمْ. فَقُلْ لَهُ أَيْضًا: الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ نَزَلَ فِيهِمُ الْقُرْآنُ هَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْمَلَائِكَةَ، وَالصَّالِحِينَ، وَاللَّاتِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ؟ فَلَا بُدَّ أَنْ يَقُولَ: نَعَمْ. فَقُلْ لَهُ: وَهَلْ كَانَتْ عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهُمْ إِلَّا فِي الدُّعَاءِ، وَالذَّبْحِ، وَالْإِلْتِجَاءِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ؟ وَإِلَّا فَهُمْ مُقَرَّنُونَ أَنَّهُمْ عِبِيدُهُ، وَتَحْتَ قَهْرِ اللَّهِ، وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يُدَبِّرُ الْأَمْرَ، وَلَكِنْ دَعَوْهُمْ، وَالتَّجَوُّوا إِلَيْهِمْ لِلجَاهِ وَالشَّفَاعَةِ، وَهَذَا ظَاهِرٌ جَدًّا.

الشرح

قال رَحِمَهُ اللهُ: (فَإِنْ قَالَ: أَنَا لَا أَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ، وَهَذَا الْإِلْتِجَاءُ إِلَيْهِمْ وَدُعَاؤُهُمْ لَيْسَ بِعِبَادَةٍ)؛ يعني: إذا كان يعترف أن العبادة حق لله عَزَّوَجَلَّ، وأنه لا يجوز عبادة غير الله، ولكنه يقول: (الالتجاء ليس من العبادة؛ فهو جائز)، فإنك تقول له: الالتجاء إلى الله عبادة، والالتجاء إلى غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك؛ لأن من التجأ إلى غير الله في الشدائد، فقد أشرك مع الله فيما لا يقدر عليه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنه هو الذي يُجِيبُ المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء، وهو الملجأ سبحانه، ولذا لجأ إليه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث يقول: «لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ»^(١)، ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾ [الجن: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨].

قال رَحِمَهُ اللهُ: (فَقُلْ لَهُ: أَنْتَ تُقَرُّ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْكَ إِخْلَاصَ الْعِبَادَةِ وَهُوَ حَقُّهُ عَلَيْكَ. فَإِذَا قَالَ: نَعَمْ. فَقُلْ لَهُ: بَيِّنْ لِي هَذَا الَّذِي فَرَضَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَهُوَ إِخْلَاصُ الْعِبَادَةِ، وَهُوَ حَقُّهُ عَلَيْكَ؛ فَإِنَّهُ لَا يَعْرِفُ الْعِبَادَةَ، وَلَا أَنْوَاعَهَا،

(١) أخرجه البخاري (٢٤٧) عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا أَتَيْتَ مُضْجَعَكَ، فَتَوَضَّأْ وَضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الْأَيْمَنِ، ثُمَّ قُلْ: اللَّهُمَّ أَسَلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَتَوَضَّعْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْبَجْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، اللَّهُمَّ أَمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، فَإِنْ مِتُّ مِنْ لَيْلَتِكَ، فَأَنْتَ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ». قَالَ: فَردَّدْتُهَا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا بَلَغْتُ: اللَّهُمَّ أَمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، قُلْتُ: وَرَسُولِكَ، قَالَ: «لَا، وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ».

فَبَيَّنَهَا لَهُ بِقَوْلِكَ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]، فَإِذَا أَعْلَمْتُهُ بِهَذَا فَقُلْ لَهُ: هَلْ هُوَ عِبَادَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى؟ فَلَا بُدَّ أَنْ يَقُولَ: نَعَمْ، وَالِدُّعَاءُ مِنَ الْعِبَادَةِ. فَقُلْ لَهُ: إِذَا أَقْرَزْتَ أَنَّهَا عِبَادَةٌ، وَدَعَوْتَ اللَّهَ لَيْلًا وَنَهَارًا، خَوْفًا وَطَمَعًا، ثُمَّ دَعَوْتَ فِي تِلْكَ الْحَاجَةِ نَبِيًّا، أَوْ غَيْرُهُ، هَلْ أَشْرَكْتَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ غَيْرُهُ؟ فَلَا بُدَّ أَنْ يَقُولَ: نَعَمْ؛ أَي: تَسْأَلُهُ عَنْ معنى العبادَة، وما الفرق بينهما وبين الالتجاء. وقل له: هل العبادَة واجبة أو مستحبة؟ فلا بد أن يعترف أن العبادَة أمر واجب وحتم على العباد، وأنها حق الله على العباد، فإذا اعترف بهذا، فقل له: فسّر لي العبادَة ما معناها، ويّين لي ما أنواعها، ما دمت أنك اعترفت أن العبادَة لله وأنها واجبة على العبد، فإنه يجب عليك أن تعرف معناها، وأن تعرف أنواعها، وإلا فكيف يُوجب الله عليك شيئًا، وأنت تجهله، ولا تعرفه؟ فإنه لا يعرف العبادَة، ولا يعرف أنواعها، وهذه آفة الجهل، ومن هنا يتعين على العباد أن يتعلموا ما أوجب الله عليهم وما فرضه الله عليهم؛ حتى يؤدّوه على وجهه الصحيح، ويتجنبوا ما يُخل به وما يبطله، أما أن تعبد الله على جهل، فإن هذه طريقة النصارى الضالين، يعبدون الله على جهل وضلال، والله أمرك أن تسأله أن يُجيبك طريقهم، فتقول: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ① صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿[الفاتحة: ٦-٧]، فالضالون هم الذين يعبدون الله على غير علم، وعلى غير معرفة بالعبادة، وإنما يعبدون الله بالعادات والتقاليد وما وجدوا عليه آبائهم وأجدادهم، دون أن يرجعوا إلى ما جاءت به الرسل، ونزلت به الكتب، وهذا هو سبب الضلال.

والالتجاء: هو طلب الحماية من أمر مخوف، لا يدفعه إلا الله. فهو نوع من أنواع العبادة، والله سبحانه يحير، ولا يحار عليه، ويعيد من استعاذ به، فمن التجأ إلى ميت، فقد عبده من دون الله.

وكذلك من أعظم أنواع العبادة الدعاء؛ حيث قال الله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]، وأنت بالتجاءك إلى غير الله قد دعوت غير الله، وهذا شرك.

قال رحمه الله: (فَقُلْ لَهُ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنحَرْ﴾ [الكوثر: ٢]، فَإِذَا أَطَعْتَ اللَّهَ، وَنَحَرْتَ لَهُ، هَلْ هَذِهِ عِبَادَةٌ؟ فَلَابُدَّ أَنْ يَقُولَ: نَعَمْ. فَقُلْ لَهُ: إِذَا نَحَرْتَ لِمَخْلُوقٍ: نَبِيٍّ أَوْ جَنِّيٍّ أَوْ غَيْرِهِمَا، هَلْ أَشْرَكْتَ فِي هَذِهِ الْعِبَادَةِ غَيْرَ اللَّهِ؟ فَلَابُدَّ أَنْ يُقِرَّ وَيَقُولَ: نَعَمْ؛ أَي: لا بد إذا تلوت عليه الآيات والأحاديث بأن الدعاء عبادة، لا بد أن يعترف، فتقول له: لو دعوت الله في الليل والنهار، لكنك في بعض الأحيان تدعو غير الله، هل تكون مشرِّكًا؟ فلا بد أن يعترف ويقول: (إنه مشرك)؛ لأنه دعا غير الله، ومن دعا غير الله، فهو مشرك.

وإذا كان من دعا غير الله ولو مرة واحدة في العمر يكون مشرِّكًا، مع أنه يدعو الله في الليل والنهار، فكيف بالذي يلهج دائمًا بذلك، ويقول: يا حسين، يا بدوي، يا عبد القادر، يا فلان، فيصدر منه الشرك كثيرًا؟ فإذا كان من ذبح لغير الله، أو صلى لغير الله يكون مشرِّكًا، فكيف بمن يلجأ إلى غير الله في كشف الشدائد، ألا يكون مشرِّكًا؟! بلى؛ لأن الباب واحد، وأنواع العبادة كلها بابها واحد، لا يجوز أن يخلص لله في بعضها، ويشرك بالله في البعض الآخر.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَقُلْ لَهُ أَيُّضًا: الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ نَزَلَ فِيهِمُ الْقُرْآنُ هَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْمَلَائِكَةَ، وَالصَّالِحِينَ، وَاللَّاتِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ؟ فَلَا بُدَّ أَنْ يَقُولَ: نَعَمْ. فَقُلْ لَهُ: وَهَلْ كَانَتْ عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهُمْ إِلَّا فِي الدُّعَاءِ، وَالذَّبْحِ، وَالِاتِّجَاءِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ؟ وَإِلَّا فَهُمْ مُقَرَّبُونَ أَنَّهُمْ عَبِيدُهُ، وَتَحْتَ قَهْرِ اللهِ، وَأَنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي يُدَبِّرُ الْأَمْرَ، وَلَكِنْ دَعَوْهُمْ، وَالتَّجَوُّوا إِلَيْهِمْ لِلجَّاهِ وَالشَّفَاعَةِ، وَهَذَا ظَاهِرٌ جَدًّا؛ أَيْ: أَنَّ الْمُشْرِكِينَ الْأُولِينَ مَا كَانَ شَرِكُهُمْ إِلَّا فِي هَذِهِ الْأُمُورِ، وَقَدْ نَزَلَ الْقُرْآنُ فِي الْإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ، وَالْأَمْرِ بِقِتَالِهِمْ، وَإِبَاحَةِ أَمْوَالِهِمْ وَدِمَائِهِمْ. مَا كَانُوا مَعَ أَصْنَامِهِمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهَا تَخْلُقُ وَتَرْزُقُ، وَتَحْيِي وَتَمِيتُ وَمَا كَانُوا يَدْعُونَهَا، إِلَّا مِنْ أَجْلِ الشَّفَاعَةِ، فَكَذَلِكَ عَبَادُ الْقُبُورِ الْيَوْمَ يَدْعُونَ الْأَضْرَحَةَ وَالْأَوْلِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ، وَلَا يَعْتَقِدُونَ فِيهِمْ أَنَّهُمْ يَخْلُقُونَ وَيَرْزُقُونَ، وَأَنَّهُمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَإِنَّمَا اتَّخَذُوهُمْ لِقَضَاءِ الْحَاجَاتِ وَالتَّوَسُّلِ بِهِمْ إِلَى اللهِ؛ لِيَشْفَعُوا لَهُمْ، وَيَقْرِبُوهُمْ إِلَيْهِ زَلْفَى، وَالِاتِّجَاءِ إِلَيْهِمْ فِي كُشْفِ الْكَرْبِ وَالشَّدَائِدِ.



فَإِنْ قَالَ: أَتُنْكِرُ شَفَاعَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَبْرَأُ مِنْهَا؟ فَقُلْ: لَا أُنْكِرُهَا، وَلَا أَتَبْرَأُ مِنْهَا، بَلْ هُوَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الشَّافِعُ الْمُشَفَّعُ، وَأَرْجُو شَفَاعَتَهُ، وَلَكِنَّ الشَّفَاعَةَ كُلَّهَا لِلَّهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤]، وَلَا تَكُونُ إِلَّا بَعْدَ إِذْنِ اللَّهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وَلَا يَشْفَعُ فِي أَحَدٍ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ فِيهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرْضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وَهُوَ لَا يَرْضَى إِلَّا التَّوْحِيدَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]. فَإِذَا كَانَتْ الشَّفَاعَةُ كُلَّهَا لِلَّهِ، وَلَا تَكُونُ إِلَّا بَعْدَ إِذْنِهِ، وَلَا يَشْفَعُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا غَيْرُهُ فِي أَحَدٍ حَتَّى يَأْذَنَ اللَّهُ فِيهِ، وَلَا يَأْذَنُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَّا لِأَهْلِ التَّوْحِيدِ، تَبَيَّنَ أَنَّ الشَّفَاعَةَ كُلَّهَا لِلَّهِ، وَأَطْلَبُهَا مِنْهُ -سُبْحَانَهُ- فَأَقُولُ: اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْني شَفَاعَتَهُ، اللَّهُمَّ شَفِّعْنِي، وَأَمْثَالَ هَذَا.

• الشرح •

شفاعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا ينكرها إلا أهل الباطل، والفرق الضالة كالخوارج^(١)، والمعتزلة^(٢).

(١) هم الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين جرى أمر المحكمين، واجتمعوا بحروراء من ناحية الكوفة، وفيهم قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُخْفَرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتُهُمْ بِصَلَاتِهِمْ، وَصِيَامُهُمْ بِصِيَامِهِمْ، يَمُرُّونَ مِنَ الدِّينِ، كَمَا يَمُرُّ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ». أخرجه البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجياً، سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين، أو كان بعدهم على التابعين بإحسان والأئمة في كل زمان. انظر: مقالات الإسلاميين (ص ٤، ٨٦)، والفرق بين الفرق (ص ٥٤)، والملل والنحل (١/ ١١٤).

(٢) هي إحدى الفرق الضالة المخالفة لأهل السنة والجماعة، ورأس هذه الفرقة واصل بن

أما أهل السنة والجماعة، فإن من أصول عقيدتهم الإقرار بشفاعاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وشفاعة الأولياء والصالحين، ولكنها لا تطلب منهم وهم أموات، وإنما تطلب من الله؛ لأن أحداً لا يشفع عند الله، إلا من بعد إذنه، ولا بد أن يكون المشفوع فيه ممن يرضى الله عنه من أهل التوحيد، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وهو أعظم الشفعاء يوم القيامة - إذا تقدم له أهل المحشر، وطلبوا منه أن يشفع لهم عند الله في فصل القضاء بينهم، فإنه لا يشفع ابتداءً، وإنما يستأذن ربه، ويطلب منه أن يأذن له بالشفاعة، فيخبر ساجداً بين يدي ربه، ويدعوه، ويتضرع إليه، ويستمر، حتى يقال له: «ارْفَعْ رَأْسَكَ وَسَلِّ تُعْطَهُ، وَقُلْ يُسْمَعْ وَاشْفَعْ تُشْفَعْ»^(١)، ولكن كيف تطلب الشفاعاة؟ الشفاعاة تطلب من الله، ولا تطلب من المخلوق، فتقول: (اللهم لا تحرمني شفاعاة نبيك، اللهم شفّعه فيّ)، وأمثال هذا. والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد موته لا يطلب منه شيء؛ لا شفاعاة، ولا غيرها؛ لأن طلب الأشياء من الأموات شرك أكبر.

=عطاء الغزال، كان تلميذاً في مجلس الحسن البصري، فأظهر القول بالمنزلة بين المنزلتين وأن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن ولا بكافر، فطرده الحسن من مجلسه، وانضم إليه عمرو بن عبيد، واعتزلا مجلس الحسن، فسموا بالمعتزلة لذلك، ويلقبون بالقدريّة لإسنادهم أفعال العباد إلى قدرتهم وإنكارهم القدر فيها.

وقد اختلفت المعتزلة إلى فرق شتى يجمعهم القول بنفي الصفات، والقول بخلق القرآن، وأن العبد يخلق فعل نفسه، ولهم أصول خمسة جعلوها بمنزلة أركان الإيمان عند أهل السنة، وهي: التوحيد، والعدل، والمنزلة بين المنزلتين، والوعد والوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وإنما أرادوا بهذه المسميات معاني باطلة.

انظر: الملل والنحل (١/ ٣٠ - ٣٢)، والفرق بين الفرق (ص ١٨، ٩٣، ٩٤)، والبدء والتاريخ (٥/ ١٤٢)، وسير أعلام النبلاء (٥/ ٤٦٤)، ووفيات الأعيان (٦/ ٨)، وشرح الطحاوية لابن أبي العز (ص ٧٩١-٧٩٢).

(١) كما في حديث الشفاعاة الذي ورد بعدة ألفاظ، منها: ما رواه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٩٣)٣٢٢، و[١٩٣]٣٢٦، بلفظ أتم، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورواه البخاري (٤٧١٢) ومسلم (١٩٤)٣٢٧، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورواه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣)٣٠٢، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَإِنْ قَالَ: النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُعْطِيَ الشَّفَاعَةَ، وَأَنَا أَطْلُبُهُ بِمَا أَعْطَاهُ اللَّهُ. فَالْجَوَابُ: أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاهُ الشَّفَاعَةَ، وَهَكَذَا عَنْ هَذَا، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، وَطَلَبُكَ مِنَ اللَّهِ شَفَاعَةَ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِبَادَةً، وَاللَّهُ هُنَاكَ أَنْ تُشْرِكَ فِي هَذِهِ الْعِبَادَةِ أَحَدًا، فَإِذَا كُنْتَ تَدْعُو اللَّهَ أَنْ يُشَفِّعَ نَبِيَّهُ فِيكَ، فَأَطِعْهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾.

وَأَيْضًا فَإِنَّ الشَّفَاعَةَ أُعْطِيَهَا غَيْرُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَصَحَّ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ يَشْفَعُونَ^(١)، وَالْأَفْرَاطُ^(٢) يَشْفَعُونَ^(٣)، وَالْأَوْلِيَاءُ يَشْفَعُونَ^(٤).

(١) كما في حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي أخرجه مسلم (١٨٣) أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ».

(٢) الأفرط: هم الأولاد الصغار الذين ماتوا قبل آبائهم. انظر لسان العرب ٣٦٦/٧ مادة (فرط).

(٣) كما في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا الذي أخرجه الترمذي (١٠٦٢)، وأحمد في المسند (٣٣٤/١)، وأبو يعلى (١٣٨/٥)، والطبراني في الكبير (١٢٨٨٠)، والبيهقي في الكبرى (٦٨/٤) أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنْ مَاتَ لَهُ فَرَطَانٍ مِنْ أُمَّتِي أَذْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ»، قَالَتْ عَائِشَةُ: وَمَنْ مَاتَ لَهُ فَرَطٌ؟ قَالَ: «وَمَنْ مَاتَ لَهُ فَرَطٌ يَا مَوْفِقَةٌ»، قَالَتْ: فَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ فَرَطٌ؟ قَالَ: «فَأَنَا فَرَطُ أُمَّتِي لَمْ يَصَابُوا بِمِثْلِي».

وأخرج النسائي في المجتبى (٢٢/٤)، وأحمد في المسند (٤٣٦/٣)، وابن أبي شيبة (٣٦/٣)، وابن حبان في صحيحه (٢٠٩/٧)، والطبراني في الكبير (٥٤)، والحاكم في المستدرک (٥٤١/١) من حديث معاوية بن قرة عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، «أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِرَجُلٍ مَاتَ لَهُ وَلَدٌ: «أَمَّا يَسْرُوكَ أَلَا تَأْتِي أَبَاكَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ إِلَّا وَجَدْتَهُ يَنْتَظِرُكَ». فَقَالَ رَجُلٌ: أَلَهُ حَاصَّةٌ أَوْ لِكَلِنَا؟ قَالَ: «بَلْ لِكُلِّكُمْ».

(٤) كما في حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي أخرجه مسلم (١٨٣) أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ بِأَشَدَّ مُنَاشِدَةً لِلَّهِ فِي اسْتِقْصَاءِ الْحَقِّ، مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِلَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ فِي النَّارِ، يَقُولُونَ: رَبَّنَا كُنَّا نَصُومُكَ مَعَنَا، وَيُصَلُّونَ، وَيُحْجُونَ. فَيُقَالُ لَهُمْ: أَخْرِجُوا مِنْ عَرَفْتُمْ».

أَتَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ أَعْطَاهُم الشَّفَاعَةَ، فَأَطْلُبُهَا مِنْهُمْ؟ فَإِنْ قُلْتَ هَذَا، رَجَعْتَ إِلَى عِبَادَةِ الصَّالِحِينَ، الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ فِي كِتَابِهِ، وَإِنْ قُلْتَ: لَا. بَطَلَ قَوْلُكَ: أَعْطَاهُ اللَّهُ الشَّفَاعَةَ، وَأَنَا أَطْلُبُهُ بِمَا أَعْطَاهُ اللَّهُ.

الشرح

أي ليس من لازم إعطاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وغيره الشفاعة جواز طلبها منهم وهم أموات، بدليل أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَفِي أَنْ يَشْفَعَ أَحَدٌ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ وَرِضَاهُ عَنِ الْمَشْفُوعِ فِيهِ، وَلَأَنْ طَلَبَ الشَّفَاعَةَ مِنَ الْأَمْوَاتِ شَرْكَ، وَاللَّهُ قَدْ حَرَّمَ الشَّرْكَ، وَأَحْبَطَ عَمَلَ صَاحِبِهِ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ، وَقَدْ أَنْكَرَ سُبْحَانَهُ عَلَى الَّذِينَ يَدْعُونَ غَيْرَهُ، وَيَقُولُونَ: ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَتُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وَنَزَّهَ نَفْسَهُ عَنِ ذَلِكَ، وَسَمَاهُ شَرْكَاً.

وأيضاً إعطاء الله الشفاعة ليس خاصاً بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَهَلْ كُلُّ مَنْ أُعْطِيَ الشَّفَاعَةَ تَطَلَّبَ مِنْهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟ كَمَا كَانَ الْمُشْرِكُونَ الْأَوَّلُونَ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ، ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَتُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]؟



فَإِنْ قَالَ: أَنَا لَا أَشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا، حَاشَا وَكَلَّا، وَلَكِنَّ الْإِلْتِجَاءَ إِلَى الصَّالِحِينَ لَيْسَ بِشُرْكَ. فَقُلْ لَهُ: إِذَا كُنْتَ تُقَرُّ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ الشَّرْكَ أَعْظَمَ مَنْ تَحْرِيمِ الزَّنى، وَتُقَرُّ أَنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُهُ، فَمَا هَذَا الْأَمْرُ الَّذِي حَرَّمَهُ اللَّهُ، وَذَكَرَ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُهُ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي. فَقُلْ لَهُ: كَيْفَ تُبَرِّئُ نَفْسَكَ مِنَ الشَّرْكِ وَأَنْتَ لَا تَعْرِفُهُ؟ كَيْفَ يُحَرِّمُ اللَّهُ عَلَيْكَ هَذَا، وَيَذْكُرُ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُهُ، وَلَا تَسْأَلُ عَنْهُ، وَلَا تَعْرِفُهُ؟ أَتَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحَرِّمُهُ، وَلَا يَبَيِّنُهُ لَنَا؟!

فَإِنْ قَالَ: الشَّرْكَ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ، وَنَحْنُ لَا نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ.
فَقُلْ لَهُ: مَا مَعْنَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ؟

أَتَظُنُّ أَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ تِلْكَ الْأَحْجَارَ وَالْأَخْشَابَ تَخْلُقُ، وَتَرْزُقُ، وَتُدَبِّرُ أَمْرَ مَنْ دَعَاهَا؟ فَهَذَا يُكَذِّبُهُ الْقُرْآنُ.

فَإِنْ قَالَ: هُوَ مَنْ قَصَدَ خَشَبَةً، أَوْ حَجَرًا، أَوْ بَنِيَّةً عَلَى قَبْرِ أَوْ غَيْرِهِ، يَدْعُونَ ذَلِكَ، وَيَذْبَحُونَ لَهُ، يَقُولُونَ: إِنَّهُ يُقَرِّبُنَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى، وَيَدْفَعُ اللَّهُ عَنَّا بَرَكَتَهُ، وَيُعْطِينَا بَرَكَتَهُ.

فَقُلْ: صَدَقْتَ، وَهَذَا هُوَ فِعْلُكُمْ عِنْدَ الْأَحْجَارِ، وَالْأَبْنِيَةِ الَّتِي عَلَى الْقُبُورِ وَغَيْرِهَا. فَهَذَا أَقَرُّ أَنَّ فِعْلَهُمْ هَذَا هُوَ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ، وَهُوَ الْمَطْلُوبُ.

وَيُقَالُ لَهُ أَيْضًا: قَوْلُكَ: (الشَّرْكَ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ)، هَلْ مُرَادُكَ أَنَّ الشَّرْكَ مَخْصُوصٌ بِهَذَا، وَأَنَّ الْإِعْتِمَادَ عَلَى الصَّالِحِينَ، وَدَعَاءَهُمْ لَا يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ؟ فَهَذَا يَرُدُّهُ مَا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ مِنْ كُفْرٍ مَنْ تَعَلَّقَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، أَوْ عِيسَى، أَوْ الصَّالِحِينَ. فَلَا بُدَّ أَنْ يُقَرَّرَ لَكَ أَنَّ مَنْ أَشْرَكَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ أَحَدًا مِنَ الصَّالِحِينَ، فَهُوَ الشَّرْكَ الْمَذْكُورُ فِي الْقُرْآنِ، وَهَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ.

وَسِرُّ الْمَسْأَلَةِ أَنَّهُ إِذَا قَالَ: أَنَا لَا أُشْرِكُ بِاللَّهِ.

فَقُلْ لَهُ: وَمَا الشَّرِكُ بِاللَّهِ؟ فَسِّرْهُ لِي؟ فَإِنْ قَالَ: هُوَ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ. فَقُلْ

لَهُ: وَمَا عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ؟ فَسِّرْهَا لِي؟

فإِنْ قَالَ: أَنَا لَا أَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَحْدَهُ. فَقُلْ: مَا مَعْنَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا

شَرِيكَ لَهُ؟ فَسِّرْهَا لِي؟

فإِنْ فَسَّرَهَا بِمَا بَيَّنَّهُ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ، فَهُوَ الْمَطْلُوبُ، وَإِنْ لَمْ يَعْرِفْهُ، فَكَيْفَ

يَدَّعِي شَيْئًا، وَهُوَ لَا يَعْرِفُهُ؟

وإِنْ فَسَّرَهُ بِغَيْرِ مَعْنَاهُ، بَيَّنَّتْ لَهُ الْآيَاتُ الْوَاضِحَاتُ فِي مَعْنَى الشَّرِكِ بِاللَّهِ

وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ؛ أَنَّهُ الَّذِي يَفْعَلُونَهُ فِي هَذَا الزَّمَانِ بِعَيْنِهِ، وَأَنَّ عِبَادَةَ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا

شَرِيكَ لَهُ هِيَ الَّتِي يُنْكِرُونَ عَلَيْنَا، وَيَصِيحُونَ فِيهِ؛ كَمَا صَاحَ إِخْوَانُهُمْ؛ حَيْثُ

قَالُوا: ﴿أَجْعَلِ لِلْأَلْهَةِ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾ [ص: ٥].

فإِنْ قَالَ: إِنَّهُمْ لَمْ يَكْفُرُوا بِدُعَاءِ الْمَلَائِكَةِ، وَالْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّمَا كَفَرُوا لَمَّا قَالُوا:

الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ. وَنَحْنُ لَمْ نَقُلْ: إِنَّ عَبْدَ الْقَادِرِ، وَلَا غَيْرَهُ ابْنُ اللَّهِ.

فَالْجَوَابُ: أَنَّ نِسْبَةَ الْوَلَدِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى كُفْرٌ مُسْتَقِيلٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ

هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ① اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ١، ٢]، وَالْأَحَدُ: الَّذِي لَا نَظِيرَ

لَهُ، وَالصَّمَدُ: الْمَقْصُودُ فِي الْحَوَائِجِ. فَمَنْ جَحَدَ هَذَا، فَقَدْ كَفَرَ، وَلَوْ لَمْ يَجْحَدْ

آخِرَ السُّورَةِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣]، فَمَنْ

جَحَدَ هَذَا، فَقَدْ كَفَرَ، وَلَوْ لَمْ يَجْحَدْ أَوَّلَ السُّورَةِ.

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾

[المؤمنون: ٩١]، فَفَرَّقَ بَيْنَ التَّوَعُّينِ، وَجَعَلَ كُلًّا مِنْهُمَا كُفْرًا مُسْتَقِيلًا. وَقَالَ اللَّهُ

تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾
[الأنعام: ١٠٠]، فَفَرَّقَ بَيْنَ الْكُفَرِيِّينَ.

وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذَا -أَيْضًا- أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِدُعَاءِ اللَّاتِ -مَعَ كَوْنِهِ رَجُلًا صَالِحًا- لَمْ يَجْعَلُوهُ ابْنَ اللَّهِ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعِبَادَةِ الْجِنِّ لَمْ يَجْعَلُوهُمْ كَذَلِكَ، وَكَذَلِكَ الْعُلَمَاءُ -أَيْضًا- وَجَمِيعُ الْمَذَاهِبِ الْأَرْبَعَةِ يَذْكُرُونَ فِي بَابِ (حُكْمِ الْمُرْتَدِّ) أَنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ وَلَدًا، فَهُوَ مُرْتَدٌّ، وَإِنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ، فَهُوَ مُرْتَدٌّ، فَيَفْرُقُونَ بَيْنَ التَّوَعُّينِ، وَهَذَا فِي غَايَةِ الْوُضُوحِ.

• الشَّرْحُ •

يَبَيِّنُ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ الشَّرْكَ لَيْسَ مَقْصُورًا عَلَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ؛ لِأَنَّ الْمَشْرُكِينَ الْأَوَّلِينَ مِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ، وَالْمَلَائِكَةَ أَصْلَحَ الصَّالِحِينَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ (٢٦) لَا يَسْئِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلَيْسَ بِنَجْرِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿[الأنبياء: ٢٦-٢٩].

وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الصَّالِحِينَ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧]، قِيلَ: إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي مَنْ يَعْبُدُ عَزِيرًا وَالْمَسِيحَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ.

وقيل: نزلت في قوم كانوا يعبدون الجن، فأسلم الجن، ولم يعلم من يعبدهم من الإنس أنهم أسلموا^(١).

والمقصود من ذلك: أن الله ذكر أن المشركين الأولين منهم من يعبد الأصنام والأشجار والأحجار، ومنهم من يعبد الأنبياء والصالحين، وسوى بينهم في الحكم، وحكم عليهم بالكفر والشرك.

وأنت -أيها المشبه- تريد أن تفرق بين من عبد الأصنام ومن عبد الصالحين، فتفرق بين ما جمع الله، وهذا من المحادة لله سبحانه وتعالى. هذا وجه رد هذه الشبهة؛ حيث تبين أنه لا فرق بين شرك الأولين وشرك هؤلاء الذين يدعون الإسلام، وهم يعبدون القبور والأولياء والصالحين؛ لأنهم لا يعرفون أن هذا شرك، وهذه نتيجة الجهل بعقيدة التوحيد الصحيحة، والجهل بما يضادها من الشرك، فإن من لا يعرف الشرك يقع فيه، وهو لا يدري.

ومن هنا تتضح ضرورة العناية بدراسة العقيدة الصحيحة وما يضادها.



(١) انظر: تفسير الطبري (١٤/ ٦٣٠)، وزاد المسير (٣/ ٣٢)، والقرطبي (١٠/ ٢٧٩)، وابن كثير (٥/ ٨٩).

وَأِنْ قَالَ: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، فَقُلْ: هَذَا هُوَ الْحَقُّ، وَلَكِنْ لَا يُعْبُدُونَ، وَنَحْنُ لَا نُنْكِرُ إِلَّا عِبَادَتَهُمْ مَعَ اللَّهِ، وَإِشْرَاكَهُمْ مَعَهُ، وَإِلَّا فَالْوَاجِبُ عَلَيْكَ حُبُّهُمْ، وَاتِّبَاعُهُمْ، وَالْإِقْرَارُ بِكَرَامَاتِهِمْ، وَلَا يَجْحَدُ كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ إِلَّا أَهْلُ الْبِدْعِ وَالضَّلَالَاتِ، وَدِينُ اللَّهِ وَسَطٌ بَيْنَ طَرَفَيْنِ، وَهُدًى بَيْنَ ضَلَالَتَيْنِ، وَحَقٌّ بَيْنَ بَاطِلَيْنِ.

فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ هَذَا الَّذِي يُسَمِّيهِ الْمُشْرِكُونَ فِي زَمَنِنَا (الاعتِقَادَ) هُوَ الشِّرْكَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ، وَقَاتَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسَ عَلَيْهِ، فَاعْلَمْ أَنَّ شِرْكَ الْأَوَّلِينَ أَخَفُّ مِنْ شِرْكِ أَهْلِ وَقْتِنَا بِأَمْرَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْأَوَّلِينَ لَا يُشْرِكُونَ، وَلَا يَدْعُونَ الْمَلَائِكَةَ، أَوْ الْأَوْلِيَاءَ، أَوْ الْأَوْثَانَ مَعَ اللَّهِ، إِلَّا فِي الرَّخَاءِ، وَأَمَّا فِي الشَّدَّةِ، فَيُخْلِصُونَ الدِّينَ لِلَّهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَهُ فَلَمَّا نَجَّيْكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِلَٰهَهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٤٠، ٤١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَلَهُ نِعْمَةٌ مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظَّلَالِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [لقمان: ٣٢].

فَمَنْ فِهِمْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ الَّتِي وَضَّحَهَا اللَّهُ فِي كِتَابِهِ - وَهِيَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُونَ اللَّهَ، وَيَدْعُونَ غَيْرَهُ فِي الرِّخَاءِ، وَأَمَّا فِي الشَّدَةِ، فَلَا يَدْعُونَ إِلَّا اللَّهَ وَحْدَهُ، وَيَنْسَوْنَ سَادَاتِهِمْ -، تَبَيَّنَ لَهُ الْفَرْقُ بَيْنَ شَرِكِ أَهْلِ زَمَانِنَا، وَشَرِكِ الْأَوَّلِينَ، وَلَكِنْ أَتَيْنَ مَنْ يَفْهَمُ قَلْبُهُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ فَهَمَّا رَاسِخًا؟ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

الشرح

يقول الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: إذا عرفت مما سبق أنه لا فرق بين شرك أهل الجاهلية -الذي نزل فيه القرآن، والذي قاتل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ- وشرك هؤلاء المنتسبين إلى الإسلام من عبّاد القبور وأصحاب الطرق الصوفية المنحرفة ونحوهم، لا فرق بين شرك هؤلاء وهؤلاء، إلا في الاسم؛ حيث يسمونه: «الاعتقاد» فقط، فاعلم أن شرك هؤلاء المتأخرين المنتسبين إلى الإسلام أشد وأغلظ من شرك المتقدمين من أهل الجاهلية من وجهين:

الأول: أن شرك الأولين إنما يحصل في حال الرخاء، وأما في حال الشدة، فإنهم يتركون الشرك، ويخلصون الدعاء لله؛ لعلمهم أنه لا ينجي من الشدائد، إلا الله سبحانه؛ كما ذكر الله عنهم في الآيات التي ساقها الشيخ وغيرها.

وأما هؤلاء المشركون المنتسبون إلى الإسلام، فشركهم دائم في الرخاء والشدة، بل إن شركهم في الشدة يزيد على شركهم في الرخاء؛ بحيث إذا

وقعوا في خطر وشدة، ارتفعت أصواتهم بالشرك ودعاء غير الله. هذا هو الوجه الأول من وجوه الفرق بين المشركين الأولين ومشركي زماننا.

والوجه الثاني: سيأتي.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (فَمَنْ فَهِمَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ الَّتِي وَضَّحَهَا اللهُ فِي كِتَابِهِ، وَهِيَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُونَ اللهَ، وَيَدْعُونَ غَيْرَهُ فِي الرِّخَاءِ، وَأَمَّا فِي الشَّدَّةِ فَلَا يَدْعُونَ إِلَّا اللهَ وَحْدَهُ، وَيَنْسَوْنَ سَادَاتِهِمْ، تَبَيَّنَ لَهُ الْفَرْقُ بَيْنَ شَرِكِ أَهْلِ زَمَانِنَا، وَشَرِكِ الْأَوَّلِينَ، وَلَكِنْ أَيْنَ مَنْ يَفْهَمُ قَلْبُهُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ فَهَمًّا رَاسِخًا؟! وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ)، يقول رَحِمَهُ اللهُ: إنه لا يدرك الفرق بين شرك الأولين وشرك المتأخرين -في أن شرك المتأخرين أغلظ وأشد-، إلا من فهم الآيات القرآنية، التي توضح ذلك، ومن لم يدرك الفرق، فإنه راجع لسوء فهمه.



وَالْأَمْرُ الثَّانِي: أَنَّ الْأَوَّلِينَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ أَنْاسًا مُقَرَّبِينَ عِنْدَ اللَّهِ: إِمَّا نَبِيًّا، وَإِمَّا وَلِيًّا، وَإِمَّا مَلَائِكَةً. أَوْ يَدْعُونَ أَحْجَارًا، وَأَشْجَارًا مُطِيعَةً لِلَّهِ تَعَالَى، لَيْسَتْ بِعَاصِيَةٍ، وَأَهْلُ زَمَانِنَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ أَنْاسًا مِنْ أَفْسَقِ النَّاسِ، وَالَّذِينَ يَدْعُوهُمْ هُمْ الَّذِينَ يَحْكُونَ عَنْهُمْ الْفُجُورَ؛ مِنَ الزَّنا، وَالسَّرِيقَةِ، وَتَرْكِ الصَّلَاةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَالَّذِي يَعْتَقِدُ فِي الصَّالِحِ، وَالَّذِي لَا يَعْصِي -مِثْلِ الْخَشَبِ وَالْحَجَرِ- أَهْوَنُ مِمَّنْ يَعْتَقِدُ فِيمَنْ يُشَاهَدُ فِسْقَهُ وَفَسَادَهُ، وَيُشْهَدُ بِهِ.

• الشرح •

الوجه الثاني من أوجه الفرق: أن المشركين الأولين يدعون أناسًا فيهم صلاح وتقرب إلى الله -من الملائكة، والأنبياء، والصالحين-، أو يدعون أشجارًا، أو أحجارًا ليست عاصية لله. وأما المشركون المتأخرون، فيدعون فجرة الخلق وأشدّهم كفرًا وفسقًا؛ ممن يزعمون لهم الكرامات، وسقوط التكاليف عنهم، من ملاحدة الصوفية الذين يستحلون المحرمات، ويتركون الواجبات؛ كالبدوي، والحلاج، وابن عربي، وأضرابهم من أئمة الملاحدة، فيعبدونهم، وهم يشاهدونهم يفعلون الفواحش، ويتركون الفرائض، ويزعمون أن هذا من كرامتهم وفضلهم؛ حيث سقطت عنهم التكاليف.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَالَّذِي يَعْتَقِدُ فِي الصَّالِحِ، وَالَّذِي لَا يَعْصِي -مِثْلِ الْخَشَبِ وَالْحَجَرِ- أَهْوَنُ مِمَّنْ يَعْتَقِدُ فِيمَنْ يُشَاهَدُ فِسْقَهُ وَفَسَادَهُ، وَيُشْهَدُ بِهِ)، هذه نتيجة المقارنة بين شرك الأولين وشرك المتأخرين المنتسبين إلى الإسلام،

وهي أن الشرك بعبادة الصالحين والمخلوقات التي لا تعصي أخف من الشرك بعبادة الفجرة والملاحدة والعصاة؛ لأن ذلك يدل على تزكيتهم وموافقتهم على كفرهم وفجورهم، واعتباره صلاحًا وكرامة وأي محادة لله أشد من هذه المحادة؟! نسأل الله العافية!



إِذَا تَحَقَّقْتَ أَنَّ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَصَحُّ عُقُولًا وَأَخَفُّ شَرًّا مِنْ هَؤُلَاءِ، فَاعْلَمْ أَنَّ هَؤُلَاءِ شُبُهَةٌ يُورِدُونَهَا عَلَى مَا ذَكَرْنَا، وَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ شُبُهَتِهِمْ، فَأَضْغِ سَمْعَكَ لِحَوَائِجِهَا، وَهِيَ: أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الَّذِينَ نَزَلَ فِيهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَشْهَدُونَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيُكَذِّبُونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيُنْكِرُونَ الْبَعْثَ، وَيُكَذِّبُونَ الْقُرْآنَ، وَيَجْعَلُونَهُ سِحْرًا، وَنَحْنُ نَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَنُصَدِّقُ الْقُرْآنَ، وَنُؤْمِنُ بِالْبَعْثِ، وَنُصَلِّي، وَنُصُومُ، فَكَيْفَ تَجْعَلُونَنَا مِثْلَ أَوْلَئِكَ؟!

فَالْجَوَابُ: أَنَّهُ لَا خِلَافَ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ كُلِّهِمْ أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا صَدَّقَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي شَيْءٍ، وَكَذَّبَهُ فِي شَيْءٍ؛ أَنَّهُ كَافِرٌ لَمْ يَدْخُلْ فِي الْإِسْلَامِ^(١)، وَكَذَلِكَ إِذَا آمَنَ بِبَعْضِ الْقُرْآنِ، وَجَحَدَ بَعْضَهُ؛ كَمَنْ أَقَرَّ بِالتَّوْحِيدِ، وَجَحَدَ وَجُوبَ الصَّلَاةِ، أَوْ أَقَرَّ بِالتَّوْحِيدِ وَالصَّلَاةِ، وَجَحَدَ وَجُوبَ الزَّكَاةِ، أَوْ أَقَرَّ بِهَذَا كُلِّهِ وَجَحَدَ وَجُوبَ الصَّوْمِ، أَوْ أَقَرَّ بِهَذَا كُلِّهِ، وَجَحَدَ وَجُوبَ الْحَجِّ.

وَلَمَّا لَمْ يَنْقُدْ أَنَاسٌ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْحَجِّ، أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي حَقِّهِمْ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]^(٢). وَمَنْ أَقَرَّ بِهَذَا كُلِّهِ، وَجَحَدَ الْبَعْثَ، كَفَرَ

(١) انظر: الإنصاف للمرداوي (٣٢٦/١٠)، وروضة الطالبين للنووي (٦٤/١٠).

(٢) أخرج الطبري في تفسيره (٢٠/٤) عن عكرمة أنه قال: (لما نزلت آية الحج جمع رسول الله أهل الأديان كلهم، فقال: يا أيها الناس إن الله عَزَّجَلَّ كتب عليكم الحج فحجوا، فأمنت به ملة واحدة وهي من صدق النبي وآمن به، وكفرت به خمس ملل قالوا: لانؤمن به ولا نصلي إليه ولا نستقبله. فأنزل الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾).

بِالْإِجْمَاعِ^(١)، وَحَلَّ دَمُهُ وَمَالُهُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضِ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].

فَإِذَا كَانَ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ صَرَّحَ فِي كِتَابِهِ أَنَّ مَنْ آمَنَ بِبَعْضٍ، وَكَفَرَ بِبَعْضٍ، فَهُوَ كَافِرٌ حَقًّا، زَالَتْ هَذِهِ الشُّبُهَةُ، وَهَذِهِ هِيَ الَّتِي ذَكَرَهَا بَعْضُ أَهْلِ الْأَحْسَاءِ فِي كِتَابِهِ الَّذِي أَرْسَلَ إِلَيْنَا.

وَيُقَالُ - أَيْضًا -: إِذَا كُنْتَ تُقِرُّ أَنَّ مَنْ صَدَّقَ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي شَيْءٍ، وَجَحَدَ وَجُوبَ الصَّلَاةِ، فَهُوَ كَافِرٌ حَلَالُ الدَّمِ وَالْمَالِ بِالْإِجْمَاعِ، وَكَذَلِكَ إِذَا أَقْرَبَ بِكُلِّ شَيْءٍ إِلَّا الْبَعْثَ، وَكَذَلِكَ لَوْ جَحَدَ وَجُوبَ صَوْمِ رَمَضَانَ، وَصَدَّقَ بِذَلِكَ كُلَّهُ، لَا يُجَحَدُ هَذَا، وَلَا تَخْتَلِفُ الْمَذَاهِبُ فِيهِ، وَقَدْ نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ - كَمَا قَدَّمْنَا -، فَمَعْلُومٌ أَنَّ التَّوْحِيدَ هُوَ أَعْظَمُ فَرِيضَةٍ جَاءَ بِهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ أَعْظَمُ مِنَ الصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصَّوْمِ، وَالْحَجِّ، فَكَيْفَ إِذَا جَحَدَ الْإِنْسَانُ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ كَفَرَ، وَلَوْ عَمِلَ بِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَإِذَا جَحَدَ التَّوْحِيدَ، الَّذِي هُوَ دِينُ الرُّسُلِ كُلِّهِمْ لَا يَكْفُرُ؟! سُبْحَانَ اللَّهِ مَا أَعْجَبَ هَذَا الْجَهْلَ!

وَيُقَالُ - أَيْضًا -: هَؤُلَاءِ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَاتَلُوا بَنِي حَنِيفَةَ، وَقَدْ أَسْلَمُوا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُمْ يَشْهَدُونَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَيُؤَذِّنُونَ، وَيُصَلُّونَ. فَإِنْ قَالَ: إِنَّهُمْ يَشْهَدُونَ أَنَّ

مُسَيِّلِمَةَ نَبِيٍّ. قُلْنَا: هَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ، إِذَا كَانَ مَنْ رَفَعَ رَجُلًا إِلَى رُتْبَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَفَرُ^(١)، وَحَلَّ مَالَهُ وَدَمَهُ، وَلَمْ تَنْفَعُهُ الشَّهَادَتَانِ، وَلَا الصَّلَاةُ، فَكَيْفَ يَمُنُّ رَفَعَ (شَمْسَانَ) أَوْ (يُوسُفَ)، أَوْ صَحَابِيًّا، أَوْ نَبِيًّا فِي مَرْتَبَةِ جَبَّارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ؟! سُبْحَانَهُ مَا أَعْظَمَ شَأْنَهُ! ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الرَّوْمُ: ٥٩].

وَيُقَالُ - أَيْضًا -: الَّذِينَ حَرَقَهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالنَّارِ كُلُّهُمْ يَدَّعُونَ الْإِسْلَامَ^(٢)، وَهُمْ مِنْ أَصْحَابِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَتَعَلَّمُوا الْعِلْمَ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَلَكِنْ اعْتَقَدُوا فِي عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِثْلَ الْاِعْتِقَادِ فِي (يُوسُفَ)، وَ(شَمْسَانَ) وَأَمْثَالِهِمَا. فَكَيْفَ أَجْمَعَ الصَّحَابَةُ عَلَى قَتْلِهِمْ، وَكُفْرِهِمْ؟ أَتَظُنُّونَ الصَّحَابَةُ يُكْفَرُونَ الْمُسْلِمِينَ؟! أَمْ تَظُنُّونَ أَنَّ الْاِعْتِقَادَ فِي (تَاجٍ) وَأَمْثَالِهِ لَا يَضُرُّ، وَالْاِعْتِقَادُ فِي عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كُفْرٌ؟

وَيُقَالُ أَيْضًا: بَنُو عُبَيْدِ الْقَدَّاحِ^(٣) الَّذِينَ مَلَكَوا الْمَغْرِبَ وَمَصَرَ فِي زَمَنِ بَنِي الْعَبَّاسِ كُلُّهُمْ يَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيَدَّعُونَ الْإِسْلَامَ، وَيُصَلُّونَ الْجُمُعَةَ، وَالْجَمَاعَةَ، فَلَمَّا أَظْهَرُوا مُخَالَفَةَ الشَّرِيعَةِ فِي

(١) انظر: تاريخ الطبري (٢/ ٢٧٥)، والبداية والنهاية (٦/ ٣٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٢٢)، وفيه: «أَتَى عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بِزَنَادِقَةٍ فَأَحْرَقَهُمْ، فَبَلَغَ ذَلِكَ ابْنَ عَبَّاسٍ، فَقَالَ: لَوْ كُنْتُ أَنَا لَمْ أُحْرِقْهُمْ، لِنَهْيِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تُعَذِّبُوا بِعَذَابِ اللَّهِ» وَلَقَتَلْتَهُمْ، لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ يَدُلَّ دِينَهُ فَأَقْتُلُوهُ»».

(٣) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ فِي مِنْهَاجِ السَّنَةِ النَّبَوِيَّةِ (٨/ ١١): (هؤلاء العبيديون الذين كانوا يدعون أنهم من ولد علي؛ أهل العلم بالنسب يعلمون أن نسبهم باطل، وأن جدّهم يهودي في الباطن وفي الظاهر، وجدّهم ديصاني من المجوس تزوج امرأة هذا اليهودي، وكان ابنه ربييًّا لمجوسي، فانتسب إلى زوج أمه المجوسي).

أَشْيَاءَ - دُونَ مَا نَحْنُ فِيهِ -، أَجْمَعَ الْعُلَمَاءَ عَلَى كُفْرِهِمْ، وَقِتَالِهِمْ، وَأَنَّ بِلَادَهُمْ بِلَادُ حَرْبٍ، وَغَزَاهُمْ الْمُسْلِمُونَ، حَتَّى اسْتَنْقَذُوا مَا بَأْيَدِيهِمْ مِنْ بُلْدَانِ الْمُسْلِمِينَ.

وَيُقَالُ أَيْضًا: إِذَا كَانَ الْأَوَّلُونَ لَمْ يَكْفُرُوا، إِلَّا لِأَنَّهُمْ جَعَلُوا بَيْنَ الشَّرِكِ وَتَكْذِيبِ الرُّسُلِ، وَالْقُرْآنِ، وَإِنْكَارِ الْبَعْثِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَمَا مَعْنَى الْبَابِ الَّذِي ذَكَرَهُ الْعُلَمَاءُ فِي كُلِّ مَذْهَبٍ: (بَابُ حُكْمِ الْمُزْتَدِّ)، وَهُوَ الْمُسْلِمُ الَّذِي يَكْفُرُ بَعْدَ إِسْلَامِهِ. ثُمَّ ذَكَرُوا أَنْوَاعًا كَثِيرَةً، كُلُّ نَوْعٍ مِنْهَا يُكْفَرُ، وَيُحِلُّ دَمَ الرَّجُلِ وَمَالَهُ، حَتَّى إِتَمَّ ذِكْرُهَا أَشْيَاءَ يَسِيرَةً عِنْدَ مَنْ فَعَلَهَا؛ مِثْلَ كَلِمَةٍ يَذْكُرُهَا بِلِسَانِهِ دُونَ قَلْبِهِ^(١)، أَوْ كَلِمَةٍ يَذْكُرُهَا عَلَى وَجْهِ الْمَرْحِ وَاللَّعِبِ.

وَيُقَالُ - أَيْضًا -: الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤]، أَمَا سَمِعْتَ اللَّهُ كَفَرَهُمْ بِكَلِمَةٍ مَعَ كَوْنِهِمْ فِي زَمَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيُجَاهِدُونَ مَعَهُ، وَيُصَلُّونَ مَعَهُ، وَيَزْكُونُ، وَيُحْجُونَ، وَيُوحِّدُونَ؟

وَكَذَلِكَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٦٥) لَا تَعْتَدِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦].

فَهُؤُلَاءِ الَّذِينَ صَرَّحَ اللَّهُ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ - وَهُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ - قَالُوا كَلِمَةً، ذَكَرُوا أَنَّهُمْ قَالُوهَا عَلَى وَجْهِ الْمَرْحِ. فَتَأَمَّلْ هَذِهِ الشُّبُهَةَ، وَهِيَ قَوْلُهُمْ: تُكْفَرُونَ الْمُسْلِمِينَ، وَهُمْ أَنْاسٌ يَشْهَدُونَ أَنَّ

(١) انظر: زاد المسير لابن الجوزي (٣/ ٤٦٥)، والمحلى لابن حزم (١١/ ٤١١)، والمغني

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيُصَلُّونَ وَيُصُومُونَ؟! ثُمَّ تَأْمَلُ جَوَابَهَا، فَإِنَّهُ مِنْ أَنْفَعِ مَا فِي هَذِهِ الْأُورَاقِ.

• الشرح •

ما زال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ يواصل الرد على شبهات المشبهين في مسألة الشرك والتوحيد، فانتهى إلى هذه الشبهة العظيمة، التي هي من أعظم شبههم وأخطرها، ألا وهي قولهم: (إن من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وصلى، وصام، وحج، وأدى الأعمال، فإنه لا يكفر، ولو فعل ما فعل من أنواع الردة، أما الذين نزل فيهم القرآن - وهم المشركون الأولون -، فإنهم ليسوا مثل هؤلاء؛ فهم لم يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ولم يدخلوا في الإسلام، فهم لا يؤمنون بالله، ولا بالرسول، ولا بالإسلام، ولا بالقرآن، أما هؤلاء، فأظهروا الإيمان بالبعث، ويصلون، ويصومون، ويحجون، ويزكون، ويذكرون الله كثيراً).

فالشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ عند هذه الشبهة خاصة قال: (أَصْغِ سَمْعَكَ لِجَوَابِهَا فَإِنَّهَا مِنْ أَعْظَمِ شُبُهَاتِهِمْ)، ثم ردَّ الشيخ على هذه الشبهة من سبعة وجوه مهمة:

الوجه الأول:

أنه من آمن ببعض الأحكام الشرعية، وكفر ببعضها الآخر، فهو كافر بالجميع. وهؤلاء أنكروا التوحيد الذي جاءت به الرسل، وهو إفراد الله بالعبادة، فهؤلاء لم يفرّدوا الله بالعبادة، وإنما أشركوا معه غيره من الأولياء والصالحين، فالإسلام لا يقبل التجزئة ولا التفرقة، وأعظم الإسلام

التوحيد، وهو دعوة جميع الرسل، وهؤلاء جحدوا أعظم شيء، وهو توحيد العبادة، وقالوا: (لا بأس أن ينذر الإنسان لفلان، ويذبح لفلان؛ لأنه ولي، والولي ينفع ويضر)؛ مما هو مثل فعل المشركين الأولين.

الوجه الثاني:

ذكر الشيخ رحمه الله وقائع في التاريخ الإسلامي تدل على أن العلماء في كل زمان يكفرون من آمن ببعض وكفر ببعض، منها: أن الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم قاتلوا الذين يتظاهرون بالشهادتين، ويصلون، ويصومون، ويحجون، لكن لما فعلوا شيئاً من الشرك، أو جحدوا شيئاً من الدين، قاتلوهم، واستحلوا دماءهم وأموالهم، وذلك كما يلي:

أولاً: بنو حنيفة اعتقدوا أن مسيلمة رسول الله، والذين جحدوا وجوب الزكاة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم.

وثانياً: في عهد علي رضي الله عنه كفروا الغلاة الذين قالوا: (إن علياً هو الله)، مع أنهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويصلون، ويصومون، وهم في جند علي رضي الله عنه، لكن لما أظهروا الغلو، حرّقهم علي رضي الله عنه، مع أنهم يشهدون أن لا إله إلا الله، ولكنه حرّقهم، لما اعتقدوا أن شخصاً له حق في الألوهية، كفرهم، وحرّقهم بالنار.

ثالثاً: في عهد العباسيين ظهرت فرقة العبديين، وهم طائفة الشيعة الإسماعيلية؛ لأنهم يتتسبون إلى إسماعيل بن محمد بن جعفر، ولذلك سموهم بالإسماعيلية، وسموا الفاطمية؛ لأنهم يزعمون أنهم من ذرية فاطمة، ولذلك يقال لهم: الفاطميون، وفي الحقيقة أنهم من اليهود، أظهروا الإسلام، ولكن

ظهر منهم كفريات، وفي النهاية ادعى حكامهم الألوهية؛ مثل الحاكم العبيدي^(١).

فالصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قاتلوا بني حنيفة، وهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويصومون، ويحجون، لكن لما ادعوا أن مسيلمة نبي، كفرّوهم؛ لأن من اعتقد في شخص بعد محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه نبي، فقد كفر، وإن كان يصلي ويصوم، ولذلك حكم المسلمون اليوم بكفر القاديانية، الذين يدعون نبوة أحمد القادياني.

فإذا كان من رفع رجلاً إلى مرتبة النبي، كفرّ، فكيف لا يكفر من رفع رجلاً إلى مرتبة رب العالمين، وصرف له أنواعاً من العبادة كالذبح والنذر والدعاء والاستغاثة وغير ذلك؟!

وقول الشيخ: (كما رفع تاجاً وشمسان ويوسف)، ناس في زمانه غلا فيهم الناس بحجة أنهم أولياء، ولهم شعوذات وخوارق، وهم على طريقة الحلاج وابن عربي.

الوجه الثالث:

أن العلماء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عقدوا باباً في كتب الفقه، سموه باب الردة، وذكروا فيه نواقض الإسلام، وذكروا أشياء قد تكون صغيرة في أعين الناس، ولكن

(١) وهي الدولة التي تسمت باسم الفاطميين؛ نسبة لآل البيت، وأنى لهم ذلك ومؤسسها يهودي (عبد الله بن ميمون القداح) وهي دولة إسماعيلية، ومنها انبثقت الدرزية الملحدة بأمر إمامها الحاكم بأمر الله الفاطمي، وملكت في مصر حتى أباد شوكتهم الملك المجاهد صلاح الدين الأيوبي. انظر في عقائدهم ونشأتهم: الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة (ص ٣٥)، وموقف ابن تيمية من الأشاعرة (١/ ١٢١)، وهذه مفاهيمنا لشيخنا العلامة صالح بن عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ (ص ١٠٤).

حكموا أن من فعلها أو اعتقدها يكفر، مع أنه يصلي، ويصوم، ويعبد الله، ولم يحصروا حصول الردة في ما ذكرتم.

الوجه الرابع:

أن الله حكم بكفر أناس لقولهم كلمة تكلموا بها أبطلت إسلامهم وإيمانهم؛ كما قال تعالى: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤]، فكفرهم بكلمة، مع كونهم مع رسول الله يصلّون ويجاهدون.

الوجه الخامس:

أن الله كفر أناساً بسبب كلام قالوه على وجه المزاح واللعب، وأنزل في شأنهم: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٦٥) لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦]، مع أنهم يصلّون، وقد غزوا مع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة تبوك، لكن لما قالوا هذه الكلمة، كفروا بعد إيمانهم، ولم ينفعهم أنهم يصلّون، ويصومون، ويجاهدون.

فهذه الوجوه فيها إبطال هذه الشبهة، وفي الحقيقة إنها من أعظم الشبه، ولكن جوابها واضح والله الحمد.

الوجه السادس:

أن قولهم: (إن الذين نزل فيهم القرآن لا يشهدون أن لا إله إلا الله، ويكذبون الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وينكرون البعث، ويكذبون القرآن،

ويجعلونه سحرًا، ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ونصدق القرآن، ونؤمن بالبعث، ونصلي، ونصوم، فكيف تجعلوننا مثل أولئك؟!، يجب عنه: أن الرجل إذا صدق الله في شيء، وكذبه في شيء، فهو كافر مرتد عن الإسلام؛ كمن آمن ببعض القرآن، وجحد بعضه، وكمن أقر بالتوحيد والصلاة، وجحد وجوب الزكاة، أو أقر بهذا كله، وجحد الصوم، أو أقر بهذا كله، وجحد الحج، وإن كان يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

الوجه السابع:

أن من جحد وجوب الحج، كفر، وإن كان يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويصلي، ويصوم، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾، إلى قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦-٩٧]، فدلّت الآيات على أن من جحد وجوب الحج، كفر، وإن كان يشهد أن لا إله إلا الله، فكيف بمن جحد التوحيد، وأجاز عبادة القبور؟!



وَمِنَ الدَّلِيلِ عَلَى ذَلِكَ - أَيْضًا - مَا حَكَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ - مَعَ إِسْلَامِهِمْ، وَعَلِمِهِمْ، وَصَلَاحِهِمْ - أَنَّهُمْ قَالُوا لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

وَقَوْلُ أَنَاسٍ مِنَ الصَّحَابَةِ: «أَجْعَلْ لَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَاتَ أَنْوَاطٍ»، فَحَلَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ هَذَا مِثْلَ قَوْلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا﴾ ^(١).

وَلَكِنْ لِلْمُشْرِكِينَ شُبْهَةٌ يُذَلُّونَ بِهَا عِنْدَ هَذِهِ الْقِصَّةِ، وَهِيَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يَكْفُرُوا بِذَلِكَ، وَكَذَلِكَ الَّذِينَ سَأَلُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ ذَاتَ أَنْوَاطٍ لَمْ يَكْفُرُوا.

فَالْجَوَابُ: أَنْ تَقُولَ: إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ الَّذِينَ سَأَلُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ. وَلَا خِلَافَ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَوْ فَعَلُوا ذَلِكَ، لَكَفَرُوا، وَلَا خِلَافَ أَنَّ الَّذِينَ مَهَّاهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْ لَمْ يُطِيعُوهُ، وَاتَّخَذُوا ذَاتَ أَنْوَاطٍ بَعْدَ نَهْيِهِ، لَكَفَرُوا. وَهَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ.

• الشرح •

أي من الأدلة على أن من ارتكب ناقصًا من نواقض الإسلام يكفر، ولو كان يشهد أن لا إله إلا الله، ويصلي، ويصوم، إلى غير ذلك من الأعمال،

(١) أخرجه الترمذي (٢١٨٠)، والنسائي في الكبرى (٣٤٦/٦)، وابن حبان في صحيحه (٩٤/١٥)، وأحمد في المسند (٢١٨/٥)، وابن أبي شبة في مصنفه (٤٧٩/٧)، وأبو يعلى في مسنده (٣٠/٣)، والطبراني في الكبير (٣٢٩١ - ٣٢٩٤) من حديث أبي واقد الليثي رَوَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

ما قصّه الله عن بني إسرائيل حين طلبوا من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يجعلَ لهم إلهًا كآلهة المشركين، وقصة الذين طلبوا من النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يجعلَ لهم ذات أنواط، وأن النبيين الكريمين أنكرا ذلك، واعتبرا شرًا يخرجهم من الملة لو فعلوه، مع أنهم يؤمنون بالنبيين الكريمين، ويجاهدون معها.

ثم أورد الشيخ اعتراضًا على هذا الاستدلال، وهو أن بني إسرائيل الذين طلبوا من موسى أَنْ يجعلَ لهم إلهًا لم يكفروا، وكذلك الذين طلبوا من محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يجعلَ لهم ذات أنواط لم يكفروا، وأجاب عن هذا الاعتراض بأن الفريقين لم ينفذا ما قالا، ولو فعلا، لكفرا، ولكن لما نهيا عن ذلك، وبَيَّنَ لهما أنه كفر، تجنبوه، وانتهوا عنه.

ومحل الشاهد من القصتين: أن من فعل الشرك، كفر، وإن كان يشهد أن لا إله إلا الله، ويؤمن بالأنبياء، ويعمل الأعمال الصالحة.



وَلَكِنْ هَذِهِ الْقِصَّةُ تُفِيدُ: أَنَّ الْمُسْلِمَ -بَلِ الْعَالِمَ- قَدْ يَقَعُ فِي أَنْوَاعٍ مِنَ الشَّرْكِ لَا يَدْرِي عَنْهَا، فَتُفِيدُ التَّعْلِيمَ وَالتَّحَرُّزَ، وَمَعْرِفَةَ أَنَّ قَوْلَ الْجَاهِلِ: (التَّوْحِيدُ فَهَمْنَاهُ) أَنَّ هَذَا مِنْ أَكْبَرِ الْجَهْلِ وَمَكَايِدِ الشَّيْطَانِ.

وَتُفِيدُ -أَيْضًا- أَنَّ الْمُسْلِمَ الْمُجْتَهِدَ الَّذِي إِذَا تَكَلَّمَ بِكَلَامِ الْكُفْرِ، وَهُوَ لَا يَدْرِي، فَنَبَّهَ عَلَى ذَلِكَ، وَتَابَ مِنْ سَاعَتِهِ؛ أَنَّهُ لَا يَكْفُرُ؛ كَمَا فَعَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ، وَالَّذِينَ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَتُفِيدُ -أَيْضًا- أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكْفُرْ، فَإِنَّهُ يُغْلَظُ عَلَيْهِ الْكَلَامُ تَغْلِظًا شَدِيدًا؛ كَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

• الشرح •

هذه القصة فيها فوائد:

الأولى: الحذر من الشرك، وأنه قد يدب إلى المسلمين عن طريق التقليد والتشبه بالكفار: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، «اجْعَلْ لَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَاتَ أَنْوَاطٍ»، ففي ذلك التحذير من مجارة الكفار، والتحذير من الفتن التي تنجم عن ذلك، ومن ذلك عبادة القبور، التي أحدثوها، وفتنوا بها، وصاروا يدعون الناس إليها.

والخليل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي كسر الأصنام بيده، وأوذى، وألقى في النار بسبب إنكار الشرك يقول: ﴿وَأَجْبُنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضَلَّلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ ﴿[إبراهيم: ٣٥-٣٦]، خاف على نفسه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من

الفتنة، وخاف على ذريته من الفتنة، إذا كيف يقول جاهل: (إن التوحيد يمكن تعلمه في خمس دقائق)، والمهم عنده البحث في أمور السياسة، والكلام في الحكام، وفقه الواقع -كما يقولون-، ومعناه: رصد الوقائع الدولية، وتحليلاتها، والانشغال بها عن التفقه في الدين.

ومنهم من ينتقد مقررات التوحيد في المدارس والمعاهد والكلليات، ويقول: (لا داعي لهذه الكثافة في مقررات التوحيد؛ الناس مسلمون، وأولاد فطرة، وبإمكان الطلاب أن يتعلموا التوحيد من البيئة الاجتماعية... إلخ هذيانهم الفارغ)، ولو سألت واحداً من هؤلاء عن أبسط مسألة في التوحيد، ما أجابك بجواب صحيح. أعني: الذين يقولون هذه المقالة.

والفائدة الثانية -وهي فائدة عظيمة-: أن من نطق بكلمة الكفر عن جهل، وهو لا يدري، ثم نبّه، وتاب من ساعته، فإنه لا يكفر بدليل قصة بني إسرائيل مع موسى عَلَيْهِ السَّلَام، وبعض الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو لا يكفر بذلك، لكن بهذين الشرطين:

الشرط الأول: أن يكون قال هذا الكلام عن جهل، ولم يتعمد.

الشرط الثاني: أن يتوب من ساعته، ويترك هذا الشيء، إذا تبين له أنه كفر، فهذا لا يضره الكلام الذي قاله.

وهذا جواب عن شبهتهم التي سبقت، وهي أنهم يقولون: (إن بني إسرائيل لم يكفروا، وأصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكفروا بهذه الكلمة)، نقول لهم: إنهم لم يكفروا؛ لأنهم قالوها عن جهل، ونبهوا، وتركوها، وتابوا

إلى الله عَزَّوَجَلَّ، أما أنتم، فتنبّهون بالليل والنهار، وتصرون على دعاء القبور والصالحين، ولا تصغون أسماعكم لما يقال لكم؛ تكبراً وعناداً.

والفائدة الثالثة: تفيد هذه القصة أن من لم يكفر بكلمة الكفر إذا قالها جهلاً، فإنه لا يتساهل معه، بل يغلظ عليه في الإنكار؛ كما غلظ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ على قومه، وكما غلظ محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، الذين قالوا هذه المقالة؛ من باب الزجر والتحذير لاجتناب ذلك والحذر منه.



وَلِلْمُشْرِكِينَ شُبُهَةٌ أُخْرَى: يَقُولُونَ: إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْكَرَ عَلَى أَسَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَتْلَ مَنْ قَالَ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)، وَقَالَ: «أَقْتَلْتُهُ بَعْدَ مَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^(١)، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: «أَمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^(٢)، وَكَذَلِكَ أَحَادِيثُ أُخْرَى فِي الْكَفِّ عَمَّنْ قَالَهَا. وَمَرَادُ هَؤُلَاءِ الْجَهْلَةِ أَنَّ مَنْ قَالَهَا لَا يَكْفُرُ، وَلَا يُقْتَلُ، وَلَوْ فَعَلَ مَا فَعَلَ.

فَيُقَالُ لِهَؤُلَاءِ الْجَهْلَةِ الْمُشْرِكِينَ: مَعْلُومٌ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَاتَلَ الْيَهُودَ، وَسَبَّاهُمْ، وَهُمْ يَقُولُونَ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)، وَأَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَاتَلُوا بَنِي حَنِيفَةَ، وَهُمْ يَشْهَدُونَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيُصَلُّونَ، وَيَدْعُونَ الْإِسْلَامَ، وَكَذَلِكَ الَّذِينَ حَرَقَهُمُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالنَّارِ. وَهَؤُلَاءِ الْجَهْلَةُ مُقِرُّونَ أَنَّ مَنْ أَنْكَرَ الْبُعْثَ، كَفَرَ، وَقُتِلَ، وَلَوْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مَنْ أَنْكَرَ شَيْئًا مِنْ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ، كَفَرَ، وَقُتِلَ، وَلَوْ قَالَهَا.

فَكَيْفَ لَا تَنْفَعُهُ إِذَا جَحَدَ شَيْئًا مِنَ الْفُرُوعِ، وَتَنْفَعُهُ إِذَا جَحَدَ التَّوْحِيدَ، الَّذِي هُوَ أَسَاسُ دِينِ الرُّسُلِ وَرَأْسُهُ؟! وَلَكِنَّ أَعْدَاءَ اللَّهِ مَا فَهِمُوا مَعْنَى الْأَحَادِيثِ، وَلَنْ يَفْهَمُوا.

فَأَمَّا حَدِيثُ أَسَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَإِنَّهُ قَتَلَ رَجُلًا ادَّعَى الْإِسْلَامَ بِسَبَبِ أَنَّهُ ظَنَّ أَنَّهُ مَا ادَّعَاهُ إِلَّا خَوْفًا عَلَى دَمِهِ وَمَالِهِ، وَالرَّجُلُ إِذَا أَظْهَرَ الْإِسْلَامَ، وَجَبَ الْكَفُّ عَنْهُ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ مِنْهُ مَا يُخَالِفُ ذَلِكَ. وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ

(١) أخرجه البخاري (٤٢٦٩)، ومسلم (٩٦).

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٤٦)، ومسلم (٢١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا ﴿٩٤﴾ [النساء: ٩٤]؛ أَي: تَثَبُّتُوا، فَلَا يَأْتِي تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يَجِبُ الْكَفُّ عَنْهُ، وَالتَّثَبُّتُ، فَإِنْ تَبَيَّنَ مِنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ مَا يُخَالِفُ الْإِسْلَامَ، قُتِلَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾، وَلَوْ كَانَ لَا يُقْتَلُ إِذَا قَالَهَا، لَمْ يَكُنْ لِلتَّثَبُّتِ مَعْنَى.

وَكَذَلِكَ الْحَدِيثُ الْآخَرُ وَأَمثَالُهُ، مَعْنَاهُ مَا ذَكَرْتُ أَنَّ مَنْ أَظْهَرَ الْإِسْلَامَ وَالتَّوْحِيدَ، وَجَبَ الْكَفُّ عَنْهُ، إِلَّا أَنْ يَتَبَيَّنَ مِنْهُ مَا يُنَاقِضُ ذَلِكَ. وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي قَالَ: «أَقْتَلْتُهُ بَعْدَ مَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، وَقَالَ: «أَمَرْتُ أَنْ أُقَاتَلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، هُوَ الَّذِي قَالَ فِي الْخَوَارِجِ: «أَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ، فَاقْتُلُوهُمْ»^(١)، «لَئِنْ أَذْرَكْتُهُمْ، لَأَقْتُلَنَّاهُمْ قَتْلَ عَادٍ»^(٢)، مَعَ كَوْنِهِمْ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ عِبَادَةً، وَتَهْلِيلًا، حَتَّى إِنْ الصَّحَابَةُ يُحَقِّرُونَ صَلَاتَهُمْ عِنْدَهُمْ، وَهُمْ تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ مِنَ الصَّحَابَةِ، فَلَمْ تَنْفَعَهُمْ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)، وَلَا كَثْرَةُ الْعِبَادَةِ، وَلَا ادِّعَاءُ الْإِسْلَامِ، لَمَّا ظَهَرَ مِنْهُمْ مُحَالَفَةُ الشَّرِيعَةِ.

وَكَذَلِكَ مَا ذَكَرْنَا مِنْ قِتَالِ الْيَهُودِ، وَقِتَالِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بَنِي حَنِيفَةَ، وَكَذَلِكَ أَرَادَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَغْزَوْا بَنِي الْمُصْطَلِقِ، لَمَّا أَخْبَرَهُ رَجُلٌ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ مَنَعُوا الزَّكَاةَ، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقُ بَنِي فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِمَجْهَلَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]، وَكَانَ الرَّجُلُ كَاذِبًا عَلَيْهِمْ^(٣)، فَكُلُّ هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مُرَادَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْأَحَادِيثِ الَّتِي اخْتَجُّوا بِهَا مَا ذَكَرْنَاهُ.

(١) أخرجه البخاري (٣٦١١)، ومسلم (١٠٦٦) من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٤٤)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٢٧٩/٤)، والطبراني في الكبير (٢٧٤/٣) من حديث

الحارث بن ضرار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الشرح

هذه شبهة من شبه المشركين عباد القبور، الذين يدعون الإسلام،
 ويزعمون أن عبادة القبور والاستغاثة بالأموات ودعاء الغائبين لتفريج
 الكربات، أن هذه أمور لا تضر، ولا تخرج من الإسلام، ما دام صاحبها يقول:
 «لا إله إلا الله»، بدليل أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنكر على أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا
 لما قتل رجلاً من المشركين أظهر الإسلام، وقال: «لا إله إلا الله»، فقتله أسامة
 بعد ذلك؛ ظاناً أنه إنما قالها ليسلم من القتل، فأنكر عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،
 فاستدلوا بهذه القصة على أن من قال: «لا إله إلا الله»، فهو مسلم، ولو فعل
 ما يناقضها من أنواع الشرك الأكبر، وكذلك استدلوا -أيضاً- بقول النبي
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَ:
 لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ»^(١)،
 قالوا: فهذا دليل على أن من تلفظ بهذه الكلمة لا يقتل، ولو فعل ما فعل من

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٩، ١٤٥٧، ٦٩٢٤، ٧٢٨٤)، ومسلم (٢٠) من حديث أبي
 هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «لَمَّا ثَوَّفَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاسْتُخْلِفَ أَبُو بَكْرٍ، وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ
 الْعَرَبِ، قَالَ عُمَرُ: يَا أَبَا بَكْرٍ، كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:
 «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَدْ عَصَمَ
 مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ». قَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَاللَّهِ لَا أَقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ
 الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ، وَاللَّهُ لَوْ مَنَعُونِي عَنَاقًا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنَعِهَا قَالَ عُمَرُ: فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ أَنْ قَدْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَ
 أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ».

أنواع الشرك في العبادة مع الأموات والأضرحة، وصرف العبادات لغير الله، ما دام أنه يقول: «لا إله إلا الله». هذا حاصل شبهتهم، وهي شبهة خطيرة، إذا سمعها الجاهل، ربما تروج عليه، لا سيما أنهم طلوها بطلاء خادع، وهو الاستدلال بالأحاديث الصحيحة، لكن في غير موضعها.

وقد أجاب الشيخ رَحِمَهُ اللهُ عن هذه الشبهة بستة أجوبة، مجملها:

الجواب الأول: أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قاتل أناسًا يقولون: «لا إله إلا الله»، فقاتل اليهود، وهم يقولون: «لا إله إلا الله»، وقاتل الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ بني حنيفة، وهم يقولون: «لا إله إلا الله»، لما ظهر منهم ما ينافي هذه الكلمة، ولم تنفعهم هذه الكلمة، ولم تكن مانعة من قتلهم.

والجواب الثاني: في بيان تناقض هؤلاء؛ لأنهم يقولون: (من أنكر الصلاة، أو الزكاة والحج، أو أنكر البعث والنشور يكفر عندهم، وأما من أنكر التوحيد، فإنه لا يكفر عندهم).

والجواب الثالث: أن معنى حديث أسامة بن زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ليس كما فهموا؛ أن من قال: «لا إله إلا الله» يكون مسلمًا، ولو فعل الشرك والكفر. وإنما معناه: أن من قال: «لا إله إلا الله»، وجب الكف عنه، حتى يظهر منه ما يخالف مدلول هذه الكلمة من كفر أو شرك.

والجواب الرابع: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَالَ: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦]، فأمر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالتبيين -يعني: التثبت- بشأن من قال: «لا إله إلا الله»، فما فائدة التثبت، إذا كان لا يقتل إذا قالها؟!

والجواب الخامس: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر بقتل الخوارج، وهم من أشد الناس عبادةً وخوفاً من الله وورعاً، بل هم تتلمذوا على الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ومع هذا أمر بقتلهم، لما فعلوا أشياء تتنافى مع الإسلام، وهم يقولون: «لا إله إلا الله»، وهم أشد الناس عبادة وصلاة وتلاوة للقرآن.

والجواب السادس: قصة بني المصطلق، وهم قبيلة دخلوا في الإسلام، وأرسل إليهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المصدق لجباية الزكاة، ولكنه لم يذهب إليهم، بل رجع إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال: (إنهم منعوا الزكاة)، فهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بغزوهم، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقُ بَنِي قَبِيلَتِكُمْ أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحِرُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هم بغزوهم وقتلهم، وهم يقولون: «لا إله إلا الله»، لماذا؟ لما بلغه أنهم منعوا الزكاة، فمنع الزكاة يتنافى مع قول: «لا إله إلا الله».

هذا ملخص أجوبة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ عن هذه الشبهة الخطيرة.



وَلَهُمْ شُبُهَةٌ أُخْرَى، وَهِيَ مَا ذَكَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَسْتَغِيثُونَ بِآدَمَ، ثُمَّ بِنُوحٍ، ثُمَّ بِإِبْرَاهِيمَ، ثُمَّ بِمُوسَى، ثُمَّ بِعِيسَى فَكُلُّهُمْ يَعْتَذِرُونَ، حَتَّى يَنْتَهُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١)، قَالُوا: فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الاسْتِغَاثَةَ بِغَيْرِ اللَّهِ لَيْسَتْ شَرْكًَا.

فَالْجَوَابُ أَنْ تَقُولَ: سُبْحَانَ مَنْ طَبَعَ عَلَى قُلُوبِ أَعْدَائِهِ! فَإِنَّ الاسْتِغَاثَةَ بِالْمَخْلُوقِ عَلَى مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ لَا تُنْكِرُهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي قِصَّةِ مُوسَى: ﴿فَاسْتَعِذْهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص: ١٥]، وَكَمَا يَسْتَغِيثُ إِنْسَانٌ بِأَصْحَابِهِ فِي الْحَرْبِ، وَغَيْرِهَا مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يَقْدِرُ عَلَيْهَا الْمَخْلُوقُ، وَنَحْنُ أَنْكَرْنَا اسْتِغَاثَةَ الْعِبَادَةِ، الَّتِي يَفْعَلُونَهَا عِنْدَ قُبُورِ الْأَوْلِيَاءِ، أَوْ فِي غَيْبَتِهِمْ فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى.

إِذَا ثَبَتَ ذَلِكَ، فَالاسْتِغَاثَةُ بِالْأَنْبِيَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُرِيدُونَ مِنْهُمْ أَنْ يَدْعُوا اللَّهَ أَنْ يُجَاسِبَ النَّاسَ؛ حَتَّى يَسْتَرِيحَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مِنْ كَرْبِ الْمَوْقِفِ، وَهَذَا جَائِزٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ أَنْ تَأْتِيَ عِنْدَ رَجُلٍ صَالِحٍ، يُجَالِسُكَ، وَيَسْمَعُ كَلَامَكَ، تَقُولُ لَهُ: (ادْعُ لِي)؛ كَمَا كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُونَهُ فِي حَيَاتِهِ، وَأَمَّا بَعْدَ مَوْتِهِ، فَحَاشَا وَكَأَلَا أَنَّهُمْ سَأَلُوهُ ذَلِكَ عِنْدَ قَبْرِهِ، بَلْ أَنْكَرَ السَّلَفُ عَلَى مَنْ قَصَدَ دُعَاءَ اللَّهِ عِنْدَ قَبْرِهِ، فَكَيْفَ دُعَاؤُهُ نَفْسَهُ؟!

الشرح

هذه شبهة أخرى من شبههم، وهي أنهم يقولون: (إنه ثبت في الحديث الصحيح - حديث الشفاعة العظمى^(١) - أن الناس يوم القيامة إذا طال عليهم الوقوف والقيام على أقدامهم خمسين ألف سنة، والشمس قد دنت منهم، فالخلائق كلهم مجموعون من أولهم إلى آخرهم في زحام شديد، والشمس على رؤوسهم قريبة منهم، وهم واقفون على أقدامهم، فعندما يحصل لهم هذا الكرب يتذكرون الشفاعة عند الله عزَّ وجلَّ، فيرون أن الأنبياء هم أول الذين يشفعون عند الله، فيأتون إلى آدم؛ يطلبون منه أن يشفع عند الله لهم؛ ليريحهم من الموقف، فيعتذر صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسبب ما حصل منه من الخطيئة، مع أنه تاب منها، وتاب الله عليه، ولكن يستحي من الله عزَّ وجلَّ، ثم يأتون إلى نوح أوَّل الرسل، فيعتذر، ثم يأتون إلى موسى، فيطلبون منه، فيعتذر، ثم يأتون إلى عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ آخر أنبياء بني إسرائيل، فيعتذر؛ لأن الموقف موقف عظيم أمام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ثم يأتون إلى محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيقول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَا لَهَا، أَنَا لَهَا»، ثم يأتي، ويسجد بين يدي ربه، ويحمدُ الله، ويشني عليه، ويدعوه، ويستمر ساجداً بين يدي ربه، حتى يقال له: «يَا مُحَمَّدُ، ازْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ تَسْمَعُ، وَسَلِّ تَعْطُهُ، وَاشْفَعْ تُشْفَعُ»؛ لأنه لا أحد يشفع عند الله، إلا بإذنه، والرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما ذهب إلى الله، وشفع ابتداءً، بل استأذن من ربه، وسجد بين يديه، حتى أذن له، وهذا كقوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فيطلب من الله أن يفصل بين عباده، ويريحهم من

(١) سبق تخريجه (ص ١٠٠).

الموقف، فيستجيب الله شفاعة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذه تسمى الشفاعة العظمى والمقام المحمود، وهي قوله تعالى: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]، بمعنى أنه يحمده عليه الأولون والآخرون.

قال القبوريون: (فهذا فيه جواز الاستغاثة بالأنبياء والأولياء والصالحين، وأنتم تقولون: لا يستغاث إلا بالله)، وقالوا: (فهذا يدل على أن طلب الشفاعة من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جائز حيًا وميتًا، وكذلك غيره).

والجواب عن هذا - كما يقول الشيخ -: أن هذا طلب من إنسان حي قادر على الدعاء وعلى الاستئذان بالشفاعة، والطلب من الإنسان في حال حياته وقدرته ليس من الممنوع؛ كما في قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَاسْتَغْنَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص: ١٥]، وكما يستغيث الإنسان بإخوانه في الحرب وغيرها، فهذا فيه دليل على أن الاستغاثة بالحي فيما يقدر عليه جائزة، والذي يقع من الأمم يوم القيامة هو استغاثة بالحي، وطلب الدعاء منه، فيجوز أن تذهب إلى إنسان حي قادر، يسمع كلامك، وتقول: (يا فلان، ادع الله لي بكذا وكذا)، والصحابة كانوا يعملون هذا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حياته، وليس هذا من الشرك، إنما الذي يكون شركًا - وأنكرناه - هو الاستغاثة بالميت، وهذا لعللاقة له بحديث الشفاعة؛ لأنكم تستغيثون بأموات، وتطلبون الشفاعة منهم، والأموات لا يقدر على شيء، فلا يجوز أن يذهب إلى قبر؛ يستنجد به، ويدعوه، أو يطلب منه الدعاء أو الشفاعة، أو غير ذلك، فهناك فرق بين عمل هؤلاء المشركين وبين ما في الحديث الصحيح، وفي قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فبهذا التفصيل زالت هذه الشبهة، والحمد لله!

وَلَهُمْ شُبُهَةٌ أُخْرَى، وَهِيَ قِصَّةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَمَّا أُلْقِيَ فِي النَّارِ،
اغْتَرَضَ لَهُ جِبْرَائِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْهَوَاءِ، فَقَالَ: أَلَيْكَ حَاجَةٌ؟
فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَمَّا إِلَيْكَ فَلَا^(١).

قَالُوا: فَلَوْ كَانَتْ الْاسْتِغَاثَةُ بِجِبْرَائِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ شَرْكَاءَ، لَمْ يَغْرِضْهَا عَلَى
إِبْرَاهِيمَ.

فَالْجَوَابُ: أَنَّ هَذَا مِنْ جِنْسِ الشُّبُهَةِ الْأُولَى، فَإِنَّ جِبْرَائِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَرَضَ
عَلَيْهِ أَنْ يَنْفَعَهُ بِأَمْرِ يَقْدِرُ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ - كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ -: ﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾
[النجم: ٥]، فَلَوْ أَدْنَى اللَّهُ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ نَارَ إِبْرَاهِيمَ وَمَا حَوْهَا مِنَ الْأَرْضِ، وَالْجِبَالِ،
وَيُلْقِيَهَا فِي الْمَشْرِقِ، أَوْ الْمَغْرِبِ، لَفَعَلَ، وَلَوْ أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَضَعَ إِبْرَاهِيمَ فِي
مَكَانٍ بَعِيدٍ، لَفَعَلَ، وَلَوْ أَمَرَهُ أَنْ يَرْفَعَهُ إِلَى السَّمَاءِ، لَفَعَلَ. وَهَذَا كَرَجُلٍ غَنِيٍّ لَهُ
مَالٌ كَثِيرٌ، يَرَى رَجُلًا مُحْتَاجًا، فَيَعْرِضُ عَلَيْهِ أَنْ يُقْرِضَهُ، أَوْ يَهَبَهُ شَيْئًا، يَقْضِي
بِهِ حَاجَتَهُ، فَيَأْبَى ذَلِكَ الرَّجُلُ الْمُحْتَاجُ أَنْ يَأْخُذَ، وَيَصْبِرُ حَتَّى يَأْتِيَهُ اللَّهُ بِرِزْقٍ
لَا مِنَّةَ فِيهِ لِأَحَدٍ.

فَأَيْنَ هَذَا مِنْ اسْتِغَاثَةِ الْعِبَادَةِ وَالشُّرْكِ لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ؟!

• الشرح •

هذه آخر الشبهات التي ذكرها الشيخ في هذه الرسالة العظيمة، فأجاب
عنها بجواب سديد موفق، وهي أن عبادة القبور الذين يطلبون المدد من

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٤٥ / ١٧)، وأبو نعيم في الحلية (٢٠ / ١)، والبيهقي
في شعب الإيمان (٢٩ / ٢)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٨٢ / ٦).

الأموات، ويستغيثون بهم يقولون: (إن هذه الاستغاثة ليست شرًا، وذلك بدليل قصة جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ مع إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، حينما أُلقي في النار).

فإن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ جاء إلى إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ - كما يروى ^(١) -، فقال جبريل لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: «هل لك من حاجة»؛ يعرض عليه المساعدة لإنقاذه، وجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ لا شك ذو قوة عظيمة، وعنده قدرة على إنقاذ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد وصفه الله عَزَّجَلَّ فقال: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠] وفي الآية الأخرى ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾؛ يعني: قوة، فعرض جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ على إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يساعده في إخراجه من هذه الشدة، فلمَّا كان إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ عظيم الثقة بالله عَزَّجَلَّ، قال له: «أما إليك، فلا، وأما إلى الله، فنعم»، فأبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يرد أن يطلب من مخلوق أن ينقذه من هذه الشدة، وإنما توجه إلى ربه؛ كما صح في الحديث أنه قال: «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» ^(٢)، فهذا من باب التوكل على الله عَزَّجَلَّ وتفويض الأمر إليه، وهذه صفة أكمل الخلق إيمانًا؛ حيث إن إبراهيم رفض مساعدة المخلوق، وقبل مساعدة الخالق؛ لأن مساعدة المخلوق فيها منَّة وحاجة إلى المخلوق، ومساعدة الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا منَّة فيها لغير الله، وهي فضل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وجبريل عرض على إبراهيم شيئًا يقدر عليه، وهو عرض من حي حاضر قادر؛ كما يعرض الغني على الفقير مساعدته بالمال، وليس هذا من جنس الاستغاثة بالأموات أو الغائبين، الذين يستغيث بهم القبوريون؛ فإن الأموات لا يستغاث بهم،

(١) وفي ثبوته نظر.

(٢) رواه الإمام البخاري في صحيحه (١٧٢/٥) كتاب تفسير القرآن باب ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ...﴾ الآية، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ولا يقدرّون على ما طلب منهم، ولا يسمعون دعاء من دعاهم؛ كما قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ (٢٢) وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ، ﴿سَبَأُ: ٢٢-٢٣﴾، وقال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ﴿فَاطُر: ١٣-١٤﴾.



وَلَنُخْتِمَ الْكَلَامَ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - بِذِكْرِ مَسْأَلَةٍ عَظِيمَةٍ مُهِمَّةٍ تُفْهَمُ
مِمَّا تَقَدَّمَ، وَلَكِنْ نُفَرِّدُ لَهَا الْكَلَامَ لِعِظَمِ شَأْنِهَا، وَلِكَثْرَةِ الْغَلَطِ فِيهَا، فَتَقُولُ:
لَا خِلَافَ أَنَّ التَّوْحِيدَ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ بِالْقَلْبِ، وَاللِّسَانِ، وَالْعَمَلِ، فَإِنْ اخْتَلَّ
شَيْءٌ مِنْ هَذَا، لَمْ يَكُنِ الرَّجُلُ مُسْلِمًا، فَإِنْ عَرَفَ التَّوْحِيدَ، وَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ، فَهُوَ
كَافِرٌ مُعَانِدٌ؛ كَفِرَ عَوْنًا، وَإِبْلِيسَ، وَأُمْنَاهُمَا.

وَهَذَا يَغْلُطُ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، يَقُولُونَ: (هَذَا حَقٌّ، وَنَحْنُ نَفْهَمُ هَذَا،
وَنَشْهَدُ أَنَّهُ الْحَقُّ، وَلَكِنْ لَا نَقْدِرُ أَنْ نَفْعَلَهُ، وَلَا يَجُوزُ عِنْدَ أَهْلِ بَلَدِنَا إِلَّا مَنْ
وَأَفْقَهُمْ)، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْأَعْذَارِ، وَلَمْ يَعْرِفِ الْمُسْكِينُ أَنَّ غَالِبَ أَتَمَّةِ الْكُفْرِ
يَعْرِفُونَ الْحَقَّ، وَلَمْ يَتْرُكُوهُ، إِلَّا لِشَيْءٍ مِنَ الْأَعْذَارِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَشْتَرُوا
بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [التوبة: ٩]، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ، كَقَوْلِهِ: ﴿يَعْرِفُونَهُ،
كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦].

فَإِنْ عَمِلَ بِالتَّوْحِيدِ عَمَلًا ظَاهِرًا، وَهُوَ لَا يَفْهَمُهُ، وَلَا يَعْتَقِدُهُ بِقَلْبِهِ، فَهُوَ
مَنَافِقٌ، وَهُوَ شَرٌّ مِنَ الْكَافِرِ الْخَالِصِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ
الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ طَوِيلَةٌ، تَبَيَّنَ لَكَ، إِذَا تَأَمَّلْتَهَا فِي أَلْسِنَةِ النَّاسِ، تَرَى مَنْ
يَعْرِفُ الْحَقَّ، وَيَتْرُكُ الْعَمَلَ بِهِ؛ لَخَوْفِ نَقْصِ دُنْيَاهُ، أَوْ جَاهِهِ، أَوْ مُلْكِهِ. وَتَرَى
مَنْ يَعْمَلُ بِهِ ظَاهِرًا لَا بَاطِنًا، فَإِذَا سَأَلْتَهُ عَمَّا يَعْتَقِدُهُ بِقَلْبِهِ، إِذَا هُوَ لَا يَعْرِفُهُ.

• الشَّرْحُ •

ختم الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ هذه الرسالة بمسألة عظيمة مهمة، يجب تفهمها
وتعقلها؛ لأنه إذا فهمها الإنسان، فإنه يدرك أخطاء الناس في العقيدة.

وهذه المسألة هي: أن التوحيد يكون بالقول والعمل والاعتقاد، لا بد من هذه الأمور الثلاثة، فإذا اجتمعت هذه الأمور الثلاثة، صار الإنسان موحدًا مؤمنًا بالله ورسوله، وإذا اختلف واحدٌ منها، لم يكن مؤمنًا ولا موحدًا، وهم في هذا أصناف:

الصنف الأول: من يعتقد التوحيد بقلبه، ويعرف أنه لا إله إلا الله، وأن عبادة ما سواه باطلة، ولكنه لا يعمل به بجوارحه، ولا يقرُّ به بلسانه لطمع دنيوي، فهذا كافر مثل فرعون، فإن فرعون كان معترفًا بالتوحيد في قلبه، وأن ما جاء به موسى هو الحق، ولكنه ترك العمل به، وتظاهر بخلافه، وجحده تكبرًا وعنادًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

وقال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، لقد علمت -أي: عرفت بقلبك- ما أنزل هذه الآيات التي جئتك بها إلا رب السماوات والأرض بصائر للناس، فهذا دليل على أن فرعون كان مستيقنًا بقلبه صدق ما جاء به موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإنما جحد ذلك، وتظاهر بجحده كحال كفار قريش، الذين قال الله فيهم: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكَذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، دلت الآية على أن كفار قريش يصدقون بالرسول بقلوبهم، ولكن يجحدون ذلك بظواهرهم وألسنتهم، وكما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي الْيَهُودِ: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، يعرفون هذا بقلوبهم ويتظاهرون بالكتمان والجحود، مع تيقنهم

في قلوبهم بأن محمداً رسول الله، وأنه جاء بالحق من عند الله عَزَّوَجَلَّ، ولكن منعهم الكبر والحسد من اتباعه، واعتقادهم بقلوبهم لا ينفعهم، فهم كفار مخلّدون في النار. وكثير من عبّاد القبور اليوم على هذا، يقولون: (نعرف أن الذي تقولون هو التوحيد، ولكن ما نقدر أن نخالف أهل بلدنا؛ لأن أهل بلدنا عندهم أضرحة واستغاثة بالأموات، ولا نقدر أن نخالفهم لأجل أن نعيش معهم، ولا نقدر على مجابهة الناس)، فهم يوافقون الكفار والمشرّكين على عقائدهم؛ إما أن يفعلوا مثل فعلهم، وهم يعتقدون بطلان ذلك، وإما أن لا ينكروا عليهم، ولا يبيّنوا الحق، بل ربما يدافعون عنهم، وهذا هو واقعهم الآن. ويقولون لمن دعاهم إلى الحق: (هذا الرجل خارجي، وهذا الرجل جاء بمذهب خامس)، وهم يعتقدون أن ما جاء به هو ما جاء به الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو مقتضى الكتاب والسنة، يعرفون هذا، وإنما حملهم الحسد أو الكبر أو الطمع في أمور الدنيا؛ لأنهم يظنون أنهم إذا وافقوا على هذا الحق وقبلوه سيخسرون رئاستهم، ويخسرون أموالهم، ويخسرون جاههم عند الناس.

والصنف الثاني: من وافق في الظاهر، ونطق بالتوحيد، وقال: (هذا هو الصحيح، وهذا هو الحق)، وصلى، وصام، وصار مع المسلمين، لكن في قلبه لا يعتقد هذا، ويعتقد أن هذا خرافات، وأنه تقاليد بالية، فهو لم يعمل به، ولم يتكلم به إيماناً، وإنما عمل به، وتكلم به نفاقاً؛ كحالة المنافقين الذين هم في الدرك الأسفل من النار؛ لأنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم:

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَنَهُمْ جُنَّةً ﴿[المنافقون: ١-٢].

فالناس مع التوحيد ثلاثة أقسام:

القسم الأول: من يعرفه، ويؤمن به باطنًا، ويجحده ظاهرًا، وينكره.

القسم الثاني: من يتكلم به، ويعمل به ظاهرًا، وينكره، ويكفر به باطنًا، وهم المنافقون.

القسم الثالث: من يعتقده باطنًا، ويعمل به ظاهرًا وباطنًا.

والقسمان الأولان كافران خاسران، والقسم الثالث مؤمن مفلح.



وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِهِمْ آيَاتِنِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى: أُولَٰئِهِمَا: مَا تَقَدَّمَ، وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿لَا تَعْدِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٦]، فَإِذَا تَحَقَّقَتْ أَنَّ بَعْضَ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ غَزَوْا الرُّومَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَفَرُوا بِسَبَبِ كَلِمَةٍ قَالُوهَا عَلَى وَجْهِ الْمَرْحِ، تَبَيَّنَ لَكَ أَنَّ الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِالْكُفْرِ، أَوْ يَعْمَلُ بِهِ؛ خَوْفًا مِنْ نَقْصِ مَالٍ، أَوْ جَاءٍ، أَوْ مُدَارَاةٍ لِأَحَدٍ أَعْظَمَ مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ بِكَلِمَةٍ يَمْرُحُ بِهَا.

وَالْآيَةُ الثَّانِيَةُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٠٦) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ ﴿[النحل: ١٠٦-١٠٧]، فَلَمْ يَعْدِرِ اللَّهُ مِنْ هَؤُلَاءِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ، مَعَ كَوْنِ قَلْبِهِ مُطْمَئِنًّا بِالْإِيمَانِ، وَأَمَّا غَيْرُ هَذَا، فَقَدْ كَفَرَ بَعْدَ إِيمَانِهِ، سَوَاءً فَعَلَهُ خَوْفًا، أَوْ طَمَعًا، أَوْ مُدَارَاةً لِأَحَدٍ، أَوْ مَشْحَةً بِوَطْنِهِ، أَوْ أَهْلِهِ، أَوْ عَشِيرَتِهِ، أَوْ مَالِهِ، أَوْ فَعَلَهُ عَلَى وَجْهِ الْمَرْحِ، أَوْ لَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَعْرَاضِ، إِلَّا الْمَكْرَةَ.

فَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى هَذَا مِنْ جِهَتَيْنِ:

الْأُولَى: قَوْلُهُ: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ﴾، فَلَمْ يَسْتَنْهِ اللَّهُ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يُكْرَهُ إِلَّا عَلَى الْعَمَلِ، أَوْ الْكَلَامِ، وَأَمَّا عَقِيدَةُ الْقَلْبِ، فَلَا يُكْرَهُ عَلَيْهَا أَحَدٌ.

الثَّانِيَةُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾، فَصَرَّحَ أَنَّ هَذَا الْكُفْرَ وَالْعَذَابَ لَمْ يَكُنْ بِسَبَبِ الْأَعْتِقَادِ، أَوِ الْجَهْلِ، أَوْ الْبُغْضِ لِلدِّينِ، أَوْ مَحَبَّةِ الْكُفْرِ، وَإِنَّمَا سَبَبُهُ أَنَّ لَهُ فِي ذَلِكَ حِطًّا مِنْ حُظُوظِ

الدُّنْيَا، فَآثَرُهُ عَلَى الدِّينِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

تَمَّتْ بِعَوْنِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ سَنَةَ ١٢١٣ هـ

الشرح

نعم، إذا عرفت هذه القاعدة -وهي معرفة ما يحصل به الإيمان الصحيح-، فإنه يجب أن تعرف ما يضادها من الأقوال والأفعال، ومن ذلك: الكلام الذي يتكلم به الإنسان، وهو من نواقض الإسلام، لكنه يمزح به، فإنه يكفر، ولو كان ليس جاداً في كلامه؛ فالدين ليس فيه مزح، والدليل على ذلك قصة هؤلاء النفر الذين خرجوا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة تبوك لغزو الروم، لما بلغ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الروم يجمعون على غزو المسلمين، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بادر في وقت الحر وشدة القيظ والصيف ووقت طيب الثمار، والمسافة بعيدة من المدينة إلى تبوك. وإن ناساً من الذين خرجوا مع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جلسوا في مجلس يمزحون، قال واحد منهم: «مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَائِنَا هَؤُلَاءِ أَرْغَبَ بُطُونًا، وَلَا أَكْذَبَ أَلْسِنَةً، وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللَّقَاءِ»؛ يعنون رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه. وكان في المجلس غلام من الأنصار، فأنكر عليهم، وقال: (كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله)، فلما ذهب هذا الفتى ليخبر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجد الوحي قد سبقه، ونزل على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِإِلَهِهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾

لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴿ [التوبة: ٦٥-٦٦]، فجاء هؤلاء إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعتذرون، ويقولون: (يا رسول الله، ما قصدنا إلا المزح، حديث الركب، نقطع به عنا الطريق)، ولا يزيد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على تلاوة الآية، ولا يلتفت إليهم^(١).

فإذا كان هؤلاء كفروا بالله، وارتدوا، وقد كانوا مسلمين من قبل بسبب كلمة قالوها على وجه المزح واللعب، فكيف بمن يقول كلام الكفر، لا من باب المزح، وإنما من باب المحافظة على ماله وعلى جاهه وعلى مكانته، وهذا شر من المازح؛ لأنه اشترى الحياة الدنيا بالآخرة؟

فالحاصل أن الذي يتكلم بكلمة الكفر لا يخلو من خمس حالات:

الحالة الأولى: أن يكون معتقداً ذلك بقلبه، فهذا لا شك في كفره.

(١) انظر: تفسير الطبري (١١/٥٤٣)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٦/١٨٢٩)، وزاد المسير (٢/٢٧٥)، وابن كثير (٤/١٧١) عَنِ ابْنِ عُمَرَ، وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ، وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، وَقَتَادَةَ - دَخَلَ حَدِيثُ بَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ - : «أَنَّه قَالَ رَجُلٌ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَائِنَا هَؤُلَاءِ أَرْغَبَ بَطُونًا وَلَا أَكْذَبَ أَلْسِنَةً وَلَا أَجَبَنَ عِنْدَ اللَّقَاءِ - يَعْنِي: رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابَهُ الْقُرَّاءَ - فَقَالَ لَهُ عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ، لِأَخْبَرَنَّا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَذَهَبَ عَوْفٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيُخْبِرَهُ، فَوَجَدَ الْقُرَّانَ قَدْ سَبَقَهُ، فَجَاءَ ذَلِكَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَدْ اِزْهَجَ وَرَكِبَ نَاقَتَهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَتَحَدَّثُ حَدِيثَ الرِّكْبِ، نَقْطَعُ بِهِ عَنَّا الطَّرِيقَ». قَالَ ابْنُ عُمَرَ: «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ مُتَعَلِّقًا بِسَعَةِ نَاقَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَإِنَّ الْحِجَارَةَ لَتَنُكِبُ رِجْلَيْهِ، وَهُوَ يَقُولُ: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾، فَيَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿قُلْ أَيْدِيهِمْ وَرِئْسُهُمْ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ مَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ، وَمَا يَزِيدُهُ عَلَيْهِ».

الحالة الثانية: أن لا يكون معتقداً ذلك بقلبه، ولم يكره على ذلك، ولكن فعله من أجل طمع الدنيا، أو مداراة الناس وموافقتهم، فهذا كافر بنص الآية: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ [النحل: ١٠٧].

الحالة الثالثة: من فعل الكفر والشرك موافقة لأهله، وهو لا يجبه، ولا يعتقده بقلبه، وإنما فعله شحاً ببلده أو ماله أو عشيرته.

الحالة الرابعة: أن يفعل ذلك مازحاً ولاعباً؛ كما حصل من النفر المذكورين، وهذا يكون كافراً بنص الآية الكريمة.

الحالة الخامسة: أن يقول ذلك مكرهاً لا مختاراً، وقلبه مطمئن بالإيمان، فهذا مرخص له في ذلك؛ دفعاً للإكراه، وأما الأحوال الأربع الماضية، فإن صاحبها يكفر؛ كما صرحت به الآيات، وفي هذا رد على من يقول: (إن الإنسان لا يحكم عليه بالكفر، ولو قال كلمة الكفر، أو فعل أفعال الكفر، حتى يُعلم ما في قلبه)، وهذا قول باطل مخالف للنصوص، وهو قول المرجئة الضلال.

وذكر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ قاعدة عظيمة في الإكراه الذي يعذر به، والذي لا يعذر به، حيث قال: (ومعلوم أن الإنسان لا يكره إلا على العمل أو الكلام، وأما عقيدة القلب، فلا يكره أحد عليها).

وصلّى الله وسلّم على نبينا محمد، وآله، وصحبه

انتهى في ١٥ / ١١ / ١٤١٨ هـ.

بقلم

صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

المراجع

✽ الإبهاج في شرح المنهاج على منهاج الوصول إلى علم الأصول للبيضاوي،
علي بن عبد الكافي السبكي، تحقيق: جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية
- بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤هـ.

✽ أحكام القرآن، أحمد بن علي الرازي الجصاص أبو بكر، تحقيق: محمد
الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ١٤٠٥هـ.

✽ إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، المؤلف: محمد بن علي
ابن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ)، المحقق:
الشيخ أحمد عزو عناية، دمشق - كفر بطنا، قدم له: الشيخ خليل الميس
والدكتور ولي الدين صالح فرفور، الناشر: دار الكتاب العربي، الطبعة:
الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، عدد الأجزاء: ٢.

✽ إعلام الموقعين عن رب العالمين، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي
بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد،
دار الجليل - بيروت - ١٩٧٣م.

✽ الأعلام، المؤلف: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس،
الزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ)، الناشر: دار العلم للملايين،
الطبعة: الخامسة عشر - أيار / مايو ٢٠٠٢م.

✽ إغاثة اللفهان من مصائد الشيطان، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي (ابن
القيم)، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة - بيروت، الطبعة الثانية
١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م.

✽ اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني أبو العباس، تحقيق: محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية - القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٦٩هـ.

✽ الأنساب، المؤلف: عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني المروزي، أبو سعد (المتوفى: ٥٦٢هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني وغيره، الناشر: مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الطبعة: الأولى، ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢ م، عدد الأجزاء: ١.

✽ الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، علي بن سليمان المرداوي أبو الحسن، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

✽ البدء والتاريخ، المؤلف: المطهر بن طاهر المقدسي (المتوفى: نحو ٣٥٥هـ)، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، عدد الأجزاء: ٦.

✽ البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء، دار النشر: مكتبة المعارف - بيروت.

✽ بيان تلبس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، أحمد عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، تحقيق: محمد بن عبد الرحمن بن قاسم، مطبعة الحكومة - مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٣٩٢هـ.

✽ تاريخ الطبري، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت.

✽ تاريخ بغداد، اسم المؤلف: أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت.

- * تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل، أبي القاسم علي بن الحسن ابن هبة الله بن عبد الله الشافعي، تحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري، دار الفكر - بيروت، ١٩٩٥ م.
- * التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، المؤلف: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣ هـ)، الناشر: الدار التونسية للنشر - تونس، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ، عدد الأجزاء: ٣٠ (والجزء رقم ٨ في قسمين).
- * التدمرية: تحقيق الإثبات للأسماء والصفات وحقيقة الجمع بين القدر والشرع، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨ هـ)، المحقق: د. محمد بن عودة السعوي، الناشر: مكتبة العبيكان - الرياض، الطبعة: السادسة ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م، عدد الصفحات: ٢٤١.
- * تفسير القرآن (تفسير أبي حاتم)، عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي، تحقيق: أسعد محمد الطيب، المكتبة العصرية - صيدا.
- * تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفداء، دار الفكر - بيروت، ١٤٠١ هـ.
- * تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، المؤلف: أبو محمد عبد الرحمن ابن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (المتوفى: ٣٢٧ هـ)، المحقق: أسعد محمد الطيب، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثالثة - ١٤١٩ هـ.

✽ تفسير القرآن، المؤلف: أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزي السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي (المتوفى: ٤٨٩هـ)، المحقق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، الناشر: دار الوطن، الرياض - السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

✽ تفسير القرآن، عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق: د. مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة: الأولى ١٤١٠هـ.

✽ تهذيب اللغة، المؤلف: محمد بن أحمد بن الأزهر الهروي، أبو منصور (المتوفى: ٣٧٠هـ)، المحقق: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م، عدد الأجزاء: ٨.

✽ جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري)، محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري أبو جعفر، دار الفكر - بيروت، ١٤٠٥هـ.

✽ الجامع الصحيح (سنن الترمذي)، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي بيروت.

✽ الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه (صحيح البخاري)، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ.

✽ الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار النشر: دار الشعب - القاهرة.

✽ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، أحمد عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، تحقيق: علي سيد صبح المدني، مطبعة المدني - مصر.

✽ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة: الرابعة، ١٤٠٥ هـ.

✽ الدر المنثور، عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي، دار الفكر - بيروت ١٩٩٣ م.

✽ درء تعارض العقل والنقل، أحمد بن عبد السلام بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، تحقيق: عبد اللطيف عبد الرحمن، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م.

✽ الدرر السنية في الأجوبة النجدية (مجموعة رسائل ومسائل علماء نجد الأعلام من عصر الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى عصرنا هذا)، جمع عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي، الطبعة الخامسة، ١٤١٣ هـ.

✽ دلائل النبوة، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخسروجردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨ هـ)، المحقق: د. عبد المعطي قلعجي، الناشر: دار الكتب العلمية، دار الريان للتراث، الطبعة: الأولى - ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، عدد الأجزاء: ٧.

✽ الرد على المنطقيين، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨ هـ)، الناشر: دار المعرفة، بيروت، لبنان، عدد الأجزاء: ١.

✽ الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، المؤلف: أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (المتوفى: ٥٨١ هـ)، المحقق: عمر عبد السلام السلامي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م، عدد الأجزاء: ٧.

✽ روضة الطالبين وعمدة المفتين، المؤلف: أبو زكريا محيي الدين يحيى ابن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، تحقيق: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت - دمشق - عمان، الطبعة: الثالثة، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م، عدد الأجزاء: ١٢.

✽ روضة الناظر وجنة المناظر، عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي أبو محمد، تحقيق: د. عبد العزيز عبد الرحمن السعيد، جامعة الإمام محمد بن سعود - الرياض، الطبعة: الثانية، ١٣٩٩هـ.

✽ زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٤هـ.

✽ زاد المعاد في هدي خير العباد، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة - مكتبة المنار الإسلامية - بيروت - الكويت، الطبعة: الرابعة عشر ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م.

✽ سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.

✽ سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار النشر: دار الفكر.

✽ سنن البيهقي الكبرى، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز - مكة المكرمة، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.

✽ سنن الدارقطني، علي بن عمر أبو الحسن الدارقطني البغدادي، تحقيق: السيد عبد الله هاشم يماني المدني، دار المعرفة - بيروت، ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م.

✽ السنن الكبرى، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، تحقيق: د. عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ.

✽ سنن النسائي (المجتبى)، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات، حلب، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ.

✽ سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي أبو عبد الله، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: التاسعة، ١٤١٣هـ.

✽ سيرة ابن إسحاق (المبتدأ والمبعث والمغازي)، محمد بن إسحاق بن يسار، معهد الدراسات والأبحاث للتعريف، تحقيق: محمد حميد الله.

✽ السيرة النبوية (من البداية والنهاية لابن كثير)، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان، عام النشر: ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٦ م.

✽ السيرة النبوية لابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري أبو محمد، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل - بيروت، الطبعة: الأولى ١٤١١هـ.

✽ شذرات الذهب في أخبار من ذهب، المؤلف: عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العكري الحنبلي، أبو الفلاح (المتوفى: ١٠٨٩هـ)، حققه: محمود الأرنؤوط، خرج أحاديثه: عبد القادر الأرنؤوط، الناشر: دار ابن كثير، دمشق - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م، عدد الأجزاء: ١١.

✽ شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي، المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الرابعة ١٣٩١هـ.

✽ شرح الكوكب المنير، المؤلف: تقي الدين أبو البقاء محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن علي الفتوحي المعروف بابن النجار الحنبلي (المتوفى: ٩٧٢هـ)، المحقق: محمد الزحيلي ونزيه حماد، الناشر: مكتبة العبيكان، الطبعة: الطبعة الثانية ١٤١٨هـ - ١٩٩٧ م، عدد الأجزاء: ٤.

✽ شعب الإيمان، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

✽ الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، المؤلف: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م، عدد الأجزاء: ٦.

✽ صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣ م.

✽ صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

✽ الصفدية، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحلیم بن تیمیة الحراني، تحقيق محمد رشاد سالم، الطبعة ال ثانية ١٤٠٦هـ.

✽ الصواعق المرسلة على الجهمية والمعتلة، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن سعد الزرعي الدمشقي، تحقيق: د. علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة - الرياض، الطبعة: الثالثة، - ١٤١٨هـ / ١٩٩٨ م.

✽ طبقات الشافعية الكبرى، المؤلف: تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي (المتوفى: ٧٧١هـ)، المحقق: د. محمود محمد الطناحي د. عبد الفتاح محمد الحلو، الناشر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، ١٤١٣هـ، عدد الأجزاء: ١٠.

✽ الطبقات الكبرى، محمد بن سعد بن منيع أبو عبد الله البصري الزهري، دار النشر: دار صادر - بيروت.

✽ العبر في خبر من غير، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن عثمان بن قايماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، المحقق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، عدد الأجزاء: ٤.

✽ العين، المؤلف: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: ١٧٠هـ)، المحقق: د مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال، عدد الأجزاء: ٨.

✽ فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، تحقيق: محب الدين الخطيب، دار المعرفة - بيروت.

✽ الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، المؤلف: عبد القاهر بن طاهر بن محمد بن عبد الله البغدادي التميمي الإسفراييني، أبو منصور (المتوفى: ٤٢٩هـ)، الناشر: دار الآفاق الجديدة - بيروت، الطبعة: الثانية، ١٩٧٧م، عدد الأجزاء: ١.

✽ الفصل في الملل والأهواء والنحل، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الطاهري، دار النشر: مكتبة الخانجي - القاهرة.

✽ الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، المؤلف: عبد الرحمن بن عبد الخالق اليوسف، الناشر: مكتبة ابن تيمية، الكويت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

- ✽ القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة - بيروت.
- ✽ لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر - بيروت، الطبعة: الأولى.
- ✽ المجتبى من السنن، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦هـ.
- ✽ مجموع فتاوى، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق: عبد الرحمن ابن محمد بن قاسم العصامي النجدي، مكتبة ابن تيمية، الطبعة الثانية.
- ✽ مجموع مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، قسم الرسائل الشخصية - الرسالة الثالثة والحادية والثلاثون.
- ✽ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب ابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
- ✽ المحلى، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري أبو محمد، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة - بيروت.
- ✽ مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون - بيروت، الطبعة: طبعة جديدة، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.
- ✽ المختصر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، المؤلف: علي ابن محمد بن علي البعلي أبو الحسن، الناشر: جامعة الملك عبد العزيز - مكة المكرمة، تحقيق: د. محمد مظهر بقا، عدد الأجزاء: ١.
- ✽ مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م.

- * المراسيل، سليمان بن الأشعث السجستاني أبو داود، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ.
- * المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ.
- * مسند أبي يعلى، أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي التميمي، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث - دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م.
- * مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني، مؤسسة قرطبة - مصر.
- * المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المؤلف: أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (المتوفى: نحو ٧٧٠ هـ)، الناشر: المكتبة العلمية - بيروت، عدد الأجزاء: ٢ (في مجلد واحد وترقيم مسلسل واحد).
- * المصنف في الأحاديث والآثار (مصنف ابن أبي شيبة)، عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ.
- * معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي، المؤلف: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (المتوفى: ٥١٠ هـ)، المحقق: حقه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م، عدد الأجزاء: ٨.
- * معاني القرآن وإعرابه، المؤلف: إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (المتوفى: ٣١١ هـ)، المحقق: عبد الجليل عبده شلبي، الناشر: عالم الكتب - بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، عدد الأجزاء: ٥.

✽ المعجم الأوسط، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: طارق بن عوض الله ابن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين - القاهرة، ١٤١٥ هـ.
✽ المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة الزهراء - الموصل، الطبعة الثانية، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٣ م.

✽ معجم المؤلفين، المؤلف: عمر بن رضا بن محمد راغب بن عبد الغني كحالة الدمشق (المتوفى: ١٤٠٨ هـ)، الناشر: مكتبة المثنى - بيروت، دار إحياء التراث العربي بيروت، عدد الأجزاء: ١٣.

✽ معجم مقاييس اللغة، المؤلف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥ هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م، عدد الأجزاء: ٦.

✽ معرفة الصحابة، المؤلف: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق ابن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠ هـ)، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، الناشر: دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة: الأولى ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م، عدد الأجزاء: ٧ (٦ أجزاء ومجلد فهارس).

✽ المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي أبو محمد، دار الفكر - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥ هـ.

✽ مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، المؤلف: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري (المتوفى: ٣٢٤ هـ)، غنى بتصحيحه: هلموت ريتز، الناشر: دار فرانز شتايز، بمدينة فيسبادن (ألمانيا)، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م، عدد الأجزاء: ١.

✽ الملل والنحل، محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة - بيروت، ١٤٠٤ هـ.

- ✽ المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، المحقق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م، عدد الأجزاء: ١٩.
- ✽ منهاج السنة النبوية، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة، الطبعة: الأولى - ١٤٠٦ هـ.
- ✽ موقف ابن تيمية من الأشاعرة، تأليف: عبد الرحمن بن صالح بن صالح المحمود، الناشر: مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م.
- ✽ مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب في العقيدة.
- ✽ النبوات، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، المطبعة السلفية - القاهرة، ١٣٨٦ هـ.
- ✽ النهاية في غريب الحديث والأثر، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م.
- ✽ هذه مفاهيمنا، المؤلف: صالح بن عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ، الناشر: إدارة المساجد والمشاريع الخيرية الرياض، الطبعة: الثانية ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.
- ✽ الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، علي بن أحمد الواحدي أبو الحسن، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، الدار الشامية - دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ.
- ✽ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار النشر: دار الثقافة - لبنان.

فهرس الموضوعات

٥.....	مقدمة الناشر
٨.....	مقدمة الشارح
٨.....	التعريف بالمؤلف
١٦.....	معنى كلمتي (كشف) و(الشبهات)
١٩.....	تفسير البسملة
٢١.....	معنى التوحيد
٢٣.....	دين الرسل
٢٦.....	الرسول محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
٢٩.....	مقاتلة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للشرك والمشركون
٣١.....	المشركون يقرون بتوحيد الربوبية
٣٤.....	رفض المشركين توحيد الألوهية
٣٦.....	دعاء المشركين
٤١.....	قتال الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للمشركون حتى يخلصوا العبادة لله
٤٣.....	فائدة في بيان معنى الرب والإله
٤٦.....	توحيد الألوهية أساس الإسلام
٤٨.....	قصد المشركين للملائكة والأولياء بالشفاعة هو الذي أحل دماءهم
٥١.....	معنى «لا إله إلا الله»
٥٣.....	دعوة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للتوحيد
٥٤.....	معرفة الكفار معنى «لا إله إلا الله» وإنكارهم لها

- فائدتان لمعرفة الفرق بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية..... ٥٨
- الفائدة الأولى: الفرح بفضل الله..... ٦٠
- الفائدة الثانية: الخوف من الشرك..... ٦١
- خطورة الجهل بالتوحيد..... ٦٢
- الحكمة الإلهية من جعل الله لكل نبي عدواً..... ٦٥
- وجوب تعلم دين الله..... ٦٨
- أقسام الناس..... ٧١
- دحض حجج أهل الباطل..... ٧٤
- جَوَابُ أَهْلِ الْبَاطِلِ مِنْ طَرِيقَيْنِ: مُجْمَلٌ، وَمُفَصَّلٌ..... ٧٦
- معاني التأويل..... ٧٨
- الحذر ممن يتبع المتشابه..... ٨٠
- الرد على شبهات المشركين..... ٨١
- شرطا الشفاعة..... ٨٢
- الجواب المفصل على شبهات المشركين..... ٨٦
- الرد على الشبهة الأولى..... ٨٨
- الرد على الشبهة الثانية..... ٩٠
- الرد على الشبهة الثالثة..... ٩١
- الرد على دعوى المشركين أن الالتجاء إلى غير الله ودعاؤه ليس شركاً..... ٩٤
- رد شبهة المشركين في الشفاعة..... ٩٩
- الشرك ليس محصوراً في عبادة الأصنام..... ١٠٣
- شِرْكُ الْأَوَّلِينَ أَحَفُّ مِنْ شِرْكِ أَهْلِ وَقْتِنَا بِأَمْرَيْنِ..... ١٠٧

- شبهة المتأخرين من المشركين أنهم ليسوا مثل الكفار الأولين ١١٢
- الرد على الشبهة من سبعة وجوه ١١٦
- الرد على شبهة المشركين في طلب اليهود من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يجعل لهم آلهة وكذلك قصة ذات أنواط ١٢١
- فوائد قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وقومه وقصة ذات أنواط ١٢٣
- شبهة أن من قال: «لا إله إلا الله» لا يكفر بأي حال ولو فعل ما فعل ١٢٦
- الرد على الشبهة بستة أجوبة ١٢٩
- شبهة استغاثة الناس يوم القيامة بالأنبياء واستدلالهم بذلك على أن الاستغاثة بغير الله ليست شركاً ١٣١
- الرد على الشبهة ١٣٣
- شبهة المشركين في قصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مع جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ١٣٤
- الرد على الشبهة ١٣٤
- مسألة عظيمة في ختام الرسالة ١٣٧
- أصناف الناس مع التوحيد ١٣٨
- آيتان من القرآن يجب على المؤمن فهمهما ١٤١
- الذي يتكلم بكلمة الكفر لا يخلو من خمس حالات ١٤٣
- مراجع الكتاب ١٤٥
- فهرس الموضوعات ١٥٨